الحسنة والسيئة

لشيخ الإسلام ابن تيمية
٦٦١ – ٧٢٨ هـ

تقديم
الدكتور محمد جميل غازي

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام
على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين)

شيخ الإسلام ... الإمام

(أنا رجل ملّة ، لا رجل دولة)

* ابن تيمية *

— ١ —

بين يدىّ ، وأنا أكتب هذه المقدمة ؛ مجموعة من المراجع التى كتبت عن ابن تيمية ، وعرّفت به .. !

وبين يدىّ ـ أيضاً ـ حشد هائل من « البطاقات » التى تحمل نصوصاً وآراء ، وأرقاماً ، ووقائع ، وتعليقات .. تعين فى الكتابة عن الرجل ، والترجمة له ترجمة واضحة مستوعبة !

وقد أردت من خلال كل أولئك أن أكتب عن هذا الرجل الإمام ، معرّفاً به ، وبجهاده وجهوده ، وبعلمه وفضله ، وبشخصيته ومناقبه . . . !

* * *

ولكننى عدت ، فنحّيت المراجع والبطاقات جانبا !

وقررت أن أكتب عن « شيخ الإسلام . . الإمام » بدون مراجع ، ولا بطاقات !!

من الذاكرة لا من المذكرات !

ذلك لأن علاقتى « بشيخ الإسلام . . . الإمام » ترجع إلى عشرين عاماً مضت ! !

قرأته . .

وقرأت عنه . .

واستوعبت ـ أو كدت ـ ، منهجه فى التجديد ، وخطّته فى الإحياء ، وطريقته فى الفهم ! !

ولعلّى بهذا ...

أستطيع أن أكتب عن « **شيخ الإسلام** ، الإمام » مقدّماً لكتابه : « الحسنة والسيئة » . .

ولعلّى بهذا ـ **لا** أخرج عمّا تواضع عليه الباحثون ، وقعّدوه من أساليب البحث ، ومناهج الدراسة !

— ٢ —

وأبادر فأقول لحماة المنهج العلمى ، ودعاته ..

إن « ابن تيمية » قد سبقهم إلى تقرير قواعد المنهج العلمى فى جميع ما كتب ، ودرس ، وبحث ، وحقّق ..

بل إنه أول من ناقش « منطق أرسطو »[١] وردّ أشكاله وحدوده .

ووضع أسس المنهج الاستقرائى .. أو .. منطق العلوم !

ولكنه لم يجد من قومه من يهتم به كما وجد « بيكون » من قومه حتى نسب المنطق الاستقرائى إلى « بيكون » .. وكان حقه أن ينسب إلى « ابن تيمية » وضعاً للأمور فى نصابها ! !

---

(١) راجع كتابيه : « نقض المنطق » و « الرد على المنطقيين » .

إن « ابن تيميّة » بمؤلفاته التى أربت على الخمسمائة ، أدّى خدمات جليلة إلى المكتبة العربية الإسلامية . . . ولكنه على الرغم من هذه الجهود التى ينوء بالاضطلاع بها « العصبة أولو القوّة » من الدارسين والمؤلفين ؛ لم يجد من يتوفّر على دراسة مؤلفاته دراسة جادة ، وفهرستها فهرسة دقيقة ، وإشاعتها فى الخافقين . .

و « ابن تيميّة » . .

أو . . شيخ الإسلام ، الإمام .

عالمٌ ، وَعَى مصادر الثقافة الإسلامية ، واستوعب ما كتبه وألّفه أئمة الدين وشيوخه . .

هو عالمٌ لا يكتفى بحفظ الدين وروايته ، فهذا دور يتحوّل به « العالِمُ » إلى « كتاب » . . . يوضع على رفٍّ فى صوان !

ولكنه كان يناقش مايقرأ ، ومايسمع بوعيٍ وفهمٍ ورغبة أكيدة فى الوصول إلى الحق . . وقد وصل !

فما كان مقلداً لآراء الآخرين ، ولاجامد على أفكار سابقيه لأنها عرضة للحق وللباطل ، وللصواب وللخطإ ، للأخذ منها وللردّ عليها !

ولم يكن الرجل يسير على (الهوى) فى مناقشة آراء الآخرين وأفكارهم ، وإنما كان يلوذ ويعتصم (بالهدى) من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا .. وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة كثيرة من الأفكار السائدة . .

ووجد نفسه مضطراً إلى دخول معركة حامية الوطيس مع عباد القديم ، وسدنته ، أولئك الذين يعبدون القديم ويدينون به ؛ لأنه قديم ، لا لأنه حق !

آذوه بكل أسلوب . .

واستعملوا فى حربه كل سلاح ؛ حتى أسلحة الدس ، والخداع ، والتآمر !

ولـكن الرجل كان كبيراً ، فما أبِهَ ، ولا استسلم ، ولا تراجع ؛ بل ظلّ صامداً صابراً ؛ يدافع عن الحق الذى يؤمن به ويفتديه . .

وقدموه للمحاكمة . . أكثر من مرة . .

وناقشوا آراءه التى زعموا — أنها اختلاق وافتراء — والتى أفهمهم بكل جلاء ووضوح أنها الحق الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . .

ولـكنهم كشأن كل مجادل مبطل ، متـكبرٍ جبار :

﴿ بَدَا لهم مِنْ بَعْدِ مارَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِين ﴾

* * *

دخل « شيخ الإسلام ، الإمام » السجن عدة مرّات ، فى مصر ، وفى دمشق . .

ولم يكن السجن ليروعه أو يخيفه ؛ بل كان شيئاً محبّباً إلى نفسه ، فهو الذى يقول :

[مايصنع أعدائى بى ؟

أنا جنتى وبستانى فى صدرى . .

أين رحت فهى معى لاتفارقنى . .

أما حبسى خلوة . .

وقتلى شهادة . .

وإخراجى من بلدى سياحة]

وهو الذى يقول :

[المحبوس من حبس قلبه عن ربه ،

والمأسور من أسره هواه]

وهو الذى يقول :

[فتح الله علىّ فى هـذا الحصن من معانى القرآن ، ومن أصول العلم بأشياء مات كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن] .

وهو الذى يقول لما أدخلوه القلعة سجيناً ، وأغلقوا عليـــــه بابها : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .

— ٦ —

ولم يكن ابن تيمية ـ وحده ـ هو العالم المسلم الذى أدّى ضريبة العلم ، فإن كثيراً من علمائنا مرّوا بنفس التجربة ، وفتنوا فى أموالهم وأنفسهم . .

فهذا هو عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وسعيد بن جبير يقتلهما الحجاج !

وهذا هو سعيد بن المسيّب يضربه عبد الملك بن مروان مائة سوطٍ ، ويصبّ عليه جرّة ماءٍ فى يوم شاتٍ !

وخبيب بن عبد الله بن الزبير ـ يضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط ؛ لأنه حدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خَوَلًا ، ومال الله دولًا ! » .

فكان عمر إذا قيل له : أبشر ، يقول : كيف بخبيب على الطريق !

وأبو عمرو بن العلاء يضربه بنو أمية خمسمائة سوط !

والإمام موسى الكاظم سجنه هارون الرشيد حتى مات !

والإمام أبو حنيفة توفى فى السجن بعد أن ضرب ، وقيل : سُقِىَ سُمًّا !

والإمام مالك ضربه جعفر بن سليمان والى المدينة من قِبَل المنصور سبعين سوطاً !

والإمام أحمد ، امتحن وسجن وضرب فى أيام بنى العباس .

* * *

وهكذا . . هكذا . .

يحمل التاريخ الإسلامى فى أعز صفحاته « قوائم شرف » بأسماء علماء أجلاء أدوا الرسالة فى بسالة ، ووفّوا بميثاق الله الذى واثقهم به لما أُوتوا الكتاب : ﴿ لتبيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ .

— ٧ —

لكن : من هو العالم ؟

ونرجع إلى « شيخ الإسلام ، الإمام » نسأله ونستفتيه فنجد الإجابة واضحة فى كتابه « الحسنة والسيئة » هذا هو الذى نقدمه للقراء اليوم . . .

قال ـ رحمه الله وأثابه ـ وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

السيئات ـ كلها ـ ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان الإنسان عالماً علماً نافعاً بأن هذا يضرّه ضرراً راجحاً لم يفعله ، فإن هذا خاصية العاقل !

ثم ينقل عن أبى العالية قوله : « سألت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

عن هذه الآية ، فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب » .

وقال « شيخ الإسلام ، الإمام » ـ رحمه الله وأثابه ـ وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ كل من خَشِيَهُ وأطاعه وترك معصيته فهو عالم ، كما قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ ﴾ .

وينقل عن الشعبي أن رجلا قال له : أيها العالم ، فقال : « إنما العالم من يخشى الله ؟ » .

وينقل عن ابن مسعود قوله : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا » .

* * *

فالعالم ـ عند ابن تيميّة ـ هو من يخشى الله ، ويوقّره ، ويتبع أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويقف عند حدوده ، ويصدع بما يؤمر . . !

والجاهل ـ عند ابن تيمية ـ هو من يفعل السيئات ، ويأتى الموبقات ، ويتكاسل عن أداء الواجبات ! !

ألا ليت علماءنا يفهمون دورهم ورسالتهم هذا الفهم السليم المستقيم . .

ألا ليتهم يدركون أن العلم ليس كتباً تحفظ لتتلى ، ولا « دبلومات » تُزَيَّن بها صدور الحوائط ، وإنَّما العلم خاق ، ورسالة ، وأمانة ، وخشية لله !

ألا ليتهم يفهمون . .

ألا ليتهم يدركون . .

إذاً لتغيَّر وجه الدنيا ، وانصلح أمر الناس .

* * *

ومادمت قد وصلت إلى هذه النقطة من هذه المقدمة ، فإننى أكون قد وصلت إلى التعريف بالكاتب . . والكتاب فى آن واحد .

فالكتاب هو : « كتاب الحسنة والسيئة » أى : « كتاب العلم والجهل » .

والكاتب ـ عالم يفهم رسالته ، ويعرف أبعاد هذه الرسالة وأعباءها . .

فهو ليس رجل محافل ، تزدهيه عبارات الإعجاب والإطراء ، ويستهويه أن يتجمع حوله أتباع وأشياع . .

إنما هو رجل حق . . يزول معه حيثما زال ، ويميل أينما مال . .

هو رجل يسير فى الطريق المستقيم ، ولا توحشه قلة السالكين .

وينأى عن الطريق المنحرف ، ولا يغترّ بكثرة الهالكين . .

هو كما يقول عن نفسه : « رجل ملَّة ، لا رجل دولة » . .

— ٩ —

إن « ابن تيميَّة » موسوعة ثقافية هائلة ، وحركة نضالية دائبة ، وتاريخاً إسلامياً حافلا . .

يقول عنه معاصروه :

[كانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذى انفرد به ، وهو عجيب فى استحضاره

واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى فى عزوه إلى الكتب الستة والمسند ؛ بحيث يصدق عليه أن يقول : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الإحاطة لله تعالى ، غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقى ، وأما التفسير فسلم إليه ، وكان يكتب فى اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة نحواً من أربعة كراريس] [١] .

ويقول عماد الدين الواسطى :

[فوالله ، ثم والله ، لم ير تحت أديم السماء : مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملا وحالًا وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً وقياماً فى حق الله تعالى عند انتهاك حرماته] .

ويقول الزملكانى :

[كان الفقهاء فى سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا فى مذاهبهم منه أشياء ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم فى علم من العلوم سواء أكان من علم الشرع أو غيره إلا فاق فيه أهله ، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها] .

ويقول الحافظ الذهبي :

[لوحلفت بين الركن والمقام ، أنى مارأيت بعينى مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت] .

ويقول عنه ابن دقيق العيد لما لقيه :

[رأيت رجلا جميع العلوم بين عينيه يأخذ منها مايريد ، ويدع مايريد] .

---

(١) ابن الوردى .

هذا هو ابن تيميَّة . .

شيخ الإسلام ، الإمام . .

وهذا ما أردت أن أقوله فى تقديمى لهذا الكتاب . . لكننى نسيت فى زحمة المشاعر والمآثر أن أذكر لك هذه الأرقام :

● ولد شيخ الإسلام الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميَّة فى ١٠ من ربيع الأول ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) بحرّان بالعراق .

● وهاجر به أبوه فرارا من التتار سنة ٦٦٨ هـ .

● وتوفى فى ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ (١٣٢٨ م) بدمشق .

* * *

يرحمه الله رحمة واسعة كفاء ماقدم لدينه من ولاء وفداء ، وجزاء ماقدم لأمته من جهود وتضحيات .

وصدق الله العظيم :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ .

القاهرة (الزيتون) فى الخميس : { ١٤ من جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ
« من أغسطس ١٩٧١ م

محمد جميل أحمد غازى

(تنبيه) : تيسيراً على القارىء قسمنا الكتاب إلى فقرات مرقمة ، ووضعنا لكل فقرة عنواناً .

الحسنة والسيئة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصـــل

فى قوله تعالى : ﴿ ٤ : ٧٩ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ وبعض ما تضمنته من الحِـكَم العظيمة .

[سياق الآية]

١ — هذه الآية : ذكرها الله فى سياق الأمر بالجهاد ، وذم الناكثين عنه . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جميعاً ـ الآيات ﴾[1] إلى أن ذكر صلاة الخوف . وقد ذكر قبلها طاعة الله وطاعة الرسول والتحاكم إلى الله والرسول ، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الله وإلى الرسول ، وذم الذين يتحاكمون ويردون ما تنازعوا فيه إلى غير الله والرسول .

فـكانت تلك الآيات : تبييناً للإيمان بالله وبالرسول ، ولهذا قال فيها : ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون ، حتى يُحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجًا مما قضيت ، ويسلِّموا تسليما ﴾[2] .

وهذا جهاد عما جاء به الرسول ، وقد قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يَرْتابُوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾[3]

---

(١) النساء ٧١ (٢) النساء ٦٥ (٣) الحجرات ١٥ .

وقال تعالى : ﴿ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالُ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادها ، ومساكنُ تَرْضَوْنَهَا : أحبَّ إليكم من اللهِ ورسوله ، وجهادٍ فى سبيله ، فَتَرَبَّصُوا حتى يَأْتِيَ الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسِقِينَ ﴾[1] وقال : ﴿ أجعلتم سقاية الحاجِّ وَعِمَارَةَ المسجِدِ الحرام كَمَنْ آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوان وجنات ـ ﴾ الآية[2] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكُمْ على تجارة تُنْجِيكُمْ من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبةً فى جنات عدن، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تُحِبُّونَهَا ، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبشِّر المؤمنين ، يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : مَنْ أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، فآمَنَتْ طائفةٌ من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة فأيَّدْنَا الذين آمنوا على عَدُوِّهِمْ فأصبحوا ظاهرين ﴾[3] .

وذكر بعد آيات الجهاد[4] إنزال الكتاب على رسول الله ليحكم بين الناس بما آراه ، ونَهْيَهُ عن ضد ذلك . وذكْرَه فضل الله عليه ورحمته فى حفظه ، وعصمته من إضلال الناس له . وتعليمه ما لم يكن يعلم : وذم من شاقَّ الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين . وتعظيم أمر الشرك ، وشديد خطره ، وأن الله لا يغفره ، ولكن يغفر ما دونه لمن يشاء إلى أن بَيَّنَ أن أحسن الأديان دين من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ، بشرط أن تكون عبادته بفعل

(١) التوبة ٢٤ (٢) التوبة ١٩ـ٢١ (٣) الصف ١٠ ـ ١٤ (٤) النساء ١٠٥ـ١٢٥.

الحسنات التى شرعها ، لا بالبدع والأهواء . وهم أهل ملة إبراهيم الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا ﴾ [١] .

فـكان فى الأمر بطاعة الرسول والجهاد عليها اتباع التوحيد، وملة إبراهيم. وهو إخلاص الدين لله ، وأن يعبد الله بما أمر به على ألسُنِ رسله فى الحسنات.

وقد ذكر تعالى فى ضمن آيات الجهاد : ذمّ من يخاف العدو ، ويطلب الحياة ، وبيّن أن ترك الجهاد لا يدفع عنهم الموت ، بل أينما كانوا أدركهم الموت ، ولو كانوا فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَة . فلا ينالون بتَرْكِ الجهاد مَنْفَعَةً ، بل لا ينالون إلا خسارة الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أيْدِيَكُمْ ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريق منهم يَخْشَوْنَ الناس كخشية الله ، أو أشَدَّ خشية . وقالوا : ربنا ، لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخَّرْتَنَا إلى أجل قريبٍ ؟ قل : متاعُ الدنيا قليلٌ . والآخرةُ خَيْرٌ لمن اتَّقى. ولا تظلمون فَتيلاً ﴾ [٢] .

وهذا الفريق قد قيل : إنهم منافقون : وقيل : نافقوا لما كُتب عليهم القتال : بل حصل منهم جُبن وفَشَل . فـكان فى قلوبهم مرض . كما قال تعالى ﴿ فإذا أنزلت سورةٌ مُحكمة ، وذُكِرَ فيها الْقِتَالُ . رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِىَ عليه من المَوْت فأوْلى لهم ، طاعةٌ وقولٌ مَعْرُوفٌ ـ الآية ﴾ [٣] . وقال تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ [٤] .

والمعنى متناول لهؤلاء ولهؤلاء : ولـكل من كان بهذه الحال .

ثم قال : ﴿ أينما تـكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بُرُوجٍ مشيدةٍ . وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل : كل من عند الله . فَمَا لِهؤلاء القوم لا يكادونَ يفقهون حَديثاً ﴾ [٥]

(١) النساء ١٢٥ . (٢) النساء ٧٧ .
(٣) محمد ٢٠ ، ٢١ . (٤) الأحزاب ١٢ . (٥) النساء ٧٨ .

فالضمير فى قوله : « وإن تصبهم » يعود إلى من ذُكِرَ ، وهم : « الذين يخشون الناس » أو يعود إلى معلوم ، وإن لم يذكر ، كما فى مواضع كثيرة .

وقد قيل : إن هؤلاء كانوا كفاراً من اليهود ، وقيل : كانوا منافقين. وقيل : بل كانوا من هؤلاء وهؤلاء . والمعنى يعمُّ كل من كان كذلك . ولكن تناوله لمن أظهر الإسلام وأُمر بالجهاد أولى .

ثم إذا تناول الذم ، فهو للكفار الذين لا يظهرون الإسلام أولى وأحرى.

[المراد بالحسنة والسيئة عند عامة المفسرين]

٢ — والذى عليه عامة المفسرين : أن « الحسنة » و « السيئة » يراد بهما النعم والمصائب ، ليس المراد مجرد ما يفعله الإنسان باختياره ، باعتباره من الحسنات أو السيئات .

فصل

[معنى الحسنات والسيئات فى كتاب الله]

٣ — ولفظ « الحسنات » و « السيئات » فى كتاب الله يتناول هذا وهذا . قال الله تعالى عن المنافقين : (إن تَمْسَسْكُمْ حسنة تَسُؤْهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل وَيَتَوَلّوا وهم فرحون)[2] وقال تعالى : (وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾[4] وقال تعالى فى حق الكفار المتطيِّرين بموسى ومن معه : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه .

---

(١) آل عمران ١٢٠ .
(٢) التوبة ٥٠ .
(٣) الأعراف ١٦٨ .
(٤) الشورى ٤٨ .

وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه ﴾[١] ذكر هذا بعد قوله : ﴿ ولقد أخذْنَا آل فرعونَ بالسِّنينَ ونَقْصٍ من الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٢] .

[المأمور به النهي عنه]

٤ — وأما الأعمال المأمور بها ، والمنهى عنها ، ففى مثل قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ فأولئك يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما ﴾[٥] .

[معنى التعبير « بما أصابك »]

٥ — وهنا قال ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ولم يقل : وما فعلت ، وما كسبت ، كما قال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)[٦] وقال تعالى ﴿ فاعلم أنما يريد الله : أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾[٧] وقال تعالى ﴿ قل : هل تَرَبَّصُونَ بنا إلا إحدى الْحُسْنَيَيْنِ ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾[٨] وقال تعالى ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة تحل قريباً من دارهم ﴾[٩] وقال تعالى ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾[١٠] ، وقال تعالى

---

(١) الأعراف ١٣٠ .
(٢) الأعراف ١٢٩ .
(٣) القصص ٨٤ .
(٤) هود ١١٤
(٥) الفرقان ٧٠ .
(٦) الشورى ٣٠ .
(٧) المائدة ٥٢ .
(٨) التوبة ٥٣ .
(٩) الرعد ٣٣ .
(١٠) المائدة ١٠٩ .

﴿ وبشّر الصّابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾(١) .

فلهذا كان قوله : « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » متناول لما يصيب الإنسان ، ويأتيه من النعم التى تسره ، ومن المصائب التى تسوءه .

[آراء المفسرين]

٦ — فالآية متناولة لهذا قطعاً . وكذلك قال عامة المفسرين .

قال أبو العالية : « إن تصبهم حسنة يقولوا : هذه مع عند الله » قال : هذه فى السراء « وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك » قال : وهذه فى الضراء .

وقال السدى : « إن تصبهم حسنة قالوا » والحسنة الخصب ، ينتج خيولهم وأنعامهم ومواشيهم ، ويحسن حالهم ، وتلد نساؤهم الغلمان « قالوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة قالوا » ـ والسيئة : الضرر فى أموالهم ، تشاؤماً بمحمد ـ « قالوا : هذه من عندك » يقولون : بتركنا ديننا ، واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء فأنزل الله « قل كلٌّ من عند الله » الحسنة والسيئة « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » قال : القرآن .

وقال ألوالبى عن ابن عباس : « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : ما فتح الله عليك يوم بدر ، وكذلك قال الضحاك .

وقال الوالبى أيضاً عن ابن عباس : « من حسنة » قال : ما أصاب من الغنيمة ، والفتح فمن الله ، قال : « والسيئة » ما أصابه يوم أُحد ، إذ شُجَّ فى

---

(١) البقرة ١٥٦ .

وجهه ، وكُسِرَت رباعيته ، وقال : أما « الحسنة » فأنعم الله بها عليك ، وأما « السيئة » فابتلاك الله بها .

وروى أيضاً عن حجاج عن عطية عن ابن عباس : « ما أصابك من حسنة فمن الله » قال : هذا يوم بدر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : هذا يوم أُحد . يقول : ما كان من نكبة : فمن ذنبك ، وأنا قدرت ذلك عليك .

وكذلك روى ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح : « فمن نفسك » قال : فبذنبك ، وأنا قدَّرتها عليك . روى هذه الآثار ابن أبي حاتم وغيره .

وروى أيضاً عن مُطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير . قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم هذه الآية التي في سورة النساء : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك) ؟أي من نفسك . والله ماوُكِلوا إلى القدر ، وقد أُمِرُوا به ، وإليه يصيرون .

وكذلك في تفسير أبي صالح عن ابن عباس : « إن تصبهم حسنة » الخصب والمطر « وإن تصبهم سيئة » الجدب والبلاء .

وقال ابن قتيبة « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال : الحسنة : النعمة ، والسيئة : البلية .

وقد ذكر أبو الفرج في قوله : « ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة » ثلاثة أقوال :

أحدها : أن « الحسنة » ما فتح الله عليهم يوم بدر ، و « السيئة » ماأصابهم يوم أُحد . قال : رواه ابن أبي طلحة وهو الوالبي : ـ عن ابن عباس .

قال : والثاني : «الحسنة» : الطاعة . و«السيئة» : المعصية قاله أبو العالية .

والثالث : « الحسنة » : النعمة ، و « السيئة » : البلية . قاله ابن منبه . وعن أبى العالية نحوه ، وهو أصح .

[رأى ابن تيمية]

٧ — قلت : هذا القول المعروف بالإسناد عن أبى العالية ، كما تقدم من تفسيره المعروف الذى يروى عنه هو وغيره ، من طريق أبى جعفر الدارى عن الربيع بن أنس عنه وأمثاله .

وأما الثانى : فهو لم يذكر إسناده ، ولكن ينقل من كتب المفسرين الذين يذكرون أقوال السلف بلا إسناد ، وكثير منها ضعيف ، بل كذب ، لا يثبت عمن نقل عنه : وعامة المفسرين المتأخرين أيضاً يفسرونه على مثل أقوال السلف ، وطائفة منهم تحملها على الطاعة والمعصية .

فأما الصنف الأول : فهى تتناوله قطعاً ، كما يدل عليه لفظها وسياقها ومعناها وأقوال السلف .

وأما المعنى الثانى : فليس مراداً دون الأول قطعا ، ولكن قد يقال : إنه مراد مع الأول ، فاعتبار أن ما يهديه الله إليه من الطاعة : هو نعمة فى حقه من الله أصابته ، وما يقع منه من المعصية ؛ هو سيئة أصابته . ونفسه التى عملت السيئة .

وإذا كان الجزاء من نفسه . فالعمل الذئ أوجب الجزاء أولى أن يكون من نفسه ؛ فلا منافاة أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدّر كما تقدم . وقد روى عن مجاهد عن ابن عباس : أنه كان يقرأ « فمن نفسك ، وأنا قدّرتها عليك » .

فصـــل

[تتابع المعاصى]

٨ — والمعصية الثانية ، قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل .

قال النبي صلى الله عليه وسلم - فى الحديث المتفق على صحته - عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صدوقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ، ويتحرّى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً » .

[تتابع الحسنات]

٩ — وقد ذكر فى غير موضع من القرآن مايبين أن الحسنة الثانية : قد تكون من ثواب الأولى . وكذلك السيئة الثانية : قد تكون من عقوبة الأولى . قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا مايُوعَظُونَ به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذا لآتيناهم من لَدُنَّا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ والذين قُتِلُوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم سيهديهم وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ، ويُدْخِلُهُمْ الجنة عَرَّفَها لهم ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ وكتابٌ مبينٌ يهدى به الله من اتَّبَعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام ﴾(٥) . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا

---

(١) النساء ٦٦ — ٦٨
(٢) العنكبوت ٦٩
(٣) محمد ٤ — ٦ .
(٤) الروم ١٠ .
(٥) المائدة ١٦ .

برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم﴾[١] وقال تعالى: ﴿وفى نُسْخَتِهَا هدًى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبُونَ﴾[٢] وقال تعالى ﴿هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاءٌ والذين لايؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عليهم عمى﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون. وإخوانُهُمْ يَمُدُّونهم فى الغَىِّ ثم لايُقْصِرُون﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المُخْلَصِينَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين﴾[٧] وقال تعالى ﴿ولما بلغ واستوى أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّلَ على محمد ـ وهو الحق من ربهم ـ كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطلَ، وأن الذين آمنوا اتَّبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾[٩] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاسديداً يُصْلِحْ لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم﴾[١٠] وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُمْ، وإن تطيعوه تهتدوا، وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين﴾[١١]

[تحكيم السنة وتحكيم الهوى]

١٠ ــ قال أبو عثمان النيسابورى: من أمَّرَ السنة على نفسه ـ قولاً وفعلاً ـ نطق بالحكمة، ومن أمَّرَ الهوى على نفسه ـ قولاً وفعلا ـ نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول: «وإن تطيعوه تهتدوا».

---

(١) الحديد ٢٨. (٢) الأعراف ١٥٤. (٣) آل عمران ١٣٨
(٤) فصلت ٤٤ (٥) الأعراف ٢٠١، ٢٠٢ (٦) يوسف ٢٤.
(٧) يوسف ٢٢. (٨) القصص ١٤. (٩) محمد ١ ـ ٣.
(١٠) الأحزاب ٧٠، ٧١. (١١) النور ٥٤.

قات : وقد قال فى آخر السورة : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمره ، أن تُصِيبَهُمْ فتنةٌ ، أو يصيبَهم عذابٌ أليم﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ وما يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أولَ مَرَّةٍ ﴾[٢] . وقال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم الْتَقَى الْجَمْعَانِ إنما اسْتَزَلَّهُمْ الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه : ياقوم لم تُؤْذُونَنِي ؟ وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ، فلما زَاغُوا أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ والله لا يهدى القوم الفاسقين ـ إلى قوله ـ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وقالوا : قلوبنا غُلْفٌ . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾[٥] وقال تعالى أيضاً: ﴿ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ . بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾[٦] . وقال تعالى: ﴿ فَبُهِتَ الذى كفر. والله لا يهدى القوم الظالمين)[٧] وقال تعالى : ﴿ ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ . ثم وَلَّيْتُمْ مدبرين ، ثم أنزل الله سَكِينَتَه على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعَذَّبَ الذين كفروا ﴾[٨] وقال تعالى فى النوعين : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا . سألقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ . فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بَنَان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾[٩] . وقال تعالى : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ بما أشركوا بالله مالم ينزِّلْ به سلطاناً ، ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين ﴾[١٠] . وقال تعالى: ﴿هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ماظننتم أن يخرجوا

(١) النور ٦٣ . (٢) الأنعام ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) آل عمران ١٥٥ . (٤) الصف ٥ ـ ٧ . (٥) البقرة ٨٨ .
(٦) النساء ١٥٥ . (٧) البقرة ٢٥٨ . (٨) التوبة ٢٥ـ٢٦ .
(٩) الأنفال ١٢ ، ١٣ . (١٠) آل عمران ١٥١ .

وظنوا أنهم مَانِعَتُهُمْ حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يَحْتَسِبُوا ، وقذف فى قلوبهم الرُّعْبَ ، يُخَرِّبُونَ بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فَاعْتَبِروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذَّبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾[(١)] ، وقال تعالى : ﴿لَنْ يَضرُّوكُم إلا أذًى ،وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبار ثم لايُنْصَرُونَ ، ضربت عليهم الذِّلة أينما ثُقِفوا ، إلا بحبل من الله ، وحَبْلٍ من الناس، وباءوا بِغَضَبٍ من الله وضُربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[(٢)] ، وقال تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ماقدَّمت لهم أنفسهم: أن سَخِطَ الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لايستكبرون ﴾[(٤)] . قال تعالى:﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطِّعوا أرحامكم؟ أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن ! أم على قلوب أقفالها ؟ إن الذين ارتدُّوا على أدبارهم ، من بعد ماتبين لهم الهدى : الشيطانُ سَوَّلَ لهم ، وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كَرِهُوا مانزَّلَ الله . سنطيعكم فى بعض الأمر ، والله يعلم إسرارهم﴾[(٥)] ، وقال تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنصَّدَّقَنَّ ،ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخِلُوا به ، وتولَّوْا وهم معرضون . فَأَعْقَبَهُمْ نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم

---

(١) الحشر ٢ – ٤ .
(٢) آل عمران ١١١ ، ١١٢ .
(٣) المائدة ٨٠ ، ٨١ .
(٤) المائدة ٨٢ .
(٥) محمد ٢٢ – ٢٦ .

يَلْقَوْنَهُ ، بما أخلفوا الله ماوعَدُوهُ وبما كانوا يكذبون ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ فإن رَجَعَكَ الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لَنْ تَخْرجوا مَعِيَ أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرةً ، فاقعدوا مع الخالفين ﴾[٢] ، وقال تعالى فى ضدِّ هـــذا : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فَعَجَّلَ لكم هذه ، وكَفَّ أيدىَ الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويَهْدِيَكُمْ صراطاً مستقيما ـ إلى قوله ـ ولوقاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوُا الأدبار ، ثم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً ، سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[٣] .

وتوليتهم الأدبار : ليس مما نهوا عنه ، ولكن هو من جزاء أعمالهم ، وهذا باب واسع .

فصـــل

[شروط الأنفس]

١١ ـ وإذا كانت السيئات التى يعملها الإنسان قد تكون من جزاء سيئات تقدمت ـ وهى مضرة ـ جاز أن يقال : هى مما أصابه من السيئات ، وهى بذنوب تقدمت .

وعلى كل تقدير : فالذنوب التى يعملها : هى من نفسه ، وإن كانت مقدَّرة عليه ؛ فإنه إذا كان الجزاء ـ الذى هو مسبب عنها من نفسه ـ فعمله الذى هو ذلك الجزاء من نفسه بطريق الأولى . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته : « نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » .

---

(١) التوبة ٧٥ ـ ٧٧ .
(٢) التوبة ٨٣ .
(٣) الفتح ٢٠ ـ ٢٣ .

وقال له أبو بكر رضى الله عنه : عَلِّمنى دعاء ، فقال : « قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رَبَّ كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشياطين وشَرَكه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا ، أو أجُرّه إلى مسلم — قُلْهُ : إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك » .

فقد بيّن أن قوله « فمن نفسك » يتناول العقوبات على الأعمال ، ويتناول الأعمال ، مع أن الكل بقدر الله .

فصـــل

[الرد على القدرية]

١٢ — وليس للقدرية أن يحتجوا بالآية لوجوه :

منها : أنهم يقولون : فعل العبد ـ حسنة كان ، أو سيئة ـ هو منه ـ لا من الله ؛ بل الله قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات ؛ لكن هذا عندهم : أحدث إرادة فعل بها الحسنات . وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات ؛ وليس واحد منهما من إحداث الرب عندهم.

والقرآن قد فرق بين الحسنات والسيئات ، وهم لا يفرقون فى الأعمال بين الحسنات والسيئات ، إلا من جهة الأمر . لا من جهة كون الله خلق فيه الحسنات دون السيئات : بل هو عندهم لم يخلق لا هذا ولا هذا .

ولكن منهم من يقول : بأنه يحدث من الأعمال الحسنة والسيئة : ما يكون جزاء . كما يقول أهل السنة .

لكن على هذا : فليست عندهم كل الحسنات من الله . ولا كل السيئات بل بعض هذا ، وبعض هذا .

الثانى : أنه قال : « كل من عند الله » فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل

السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك فى الأعمال . بل فى الجزاء .

وقوله بعد هـذا : ﴿ ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة ﴾ مثل قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ وقوله : « إن تصبهم سيئة » .

الثالث : أن الآية بها : النعم ، والمصائب ـ كما تقدم ـ وليس للقدرية المجبّرة أن تحتجّ بهذه الآية على نفْى أعمالهم التى استحقوا بها العقاب ، فإن قوله : « كل من عند الله » هو النعم والمصائب ، ولأن قوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » حجة عليهم ، وبيان أن الإنسان هو فاعل السيئات ، وأنه يستحق عليها العقاب ، والله ينعم عليه بالحسنات ـ عملها وجزائها ـ فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله ـ فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء . وإذا كانت جزاء ـ وهى من الله ـ : فالعمل الصالح الذى كان سببها : هو أيضاً من الله أنعم بهما الله على العبد ، وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه ـ لكان كل ذلك من نفسه ، والله تعالى قد فرّق بين النوعين فى الكتابة والسنة . كما فى الحديث الصحيح الإلهى ، عن الله ـ « ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، وَمَنْ وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه » وقال تعالى ﴿ أوَ لَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مِثْلَيْهَا . قلتم : أنَّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يَقْنَطُونَ ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، لِيُذِيقَهُمْ بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[٦]

---

(١) آل عمران ١٦٥ . (٢) الروم ٣٦ . (٣) الروم ٤١ .
(٤) هود ١٠١ . (٥) الزخرف ٧٦ . (٦) ص ٨٥ .

وقال تعالى للمؤمنين : ﴿ولـكن الله حَبَّبَ إليـكم الإيمانَ وَزَيَّنَه فى قلوبكمْ وَكَرَّه إليْـكُمْ الْـكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾[1] ، وقد أمروا أن يقولوا فى الصلاة : ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

فصـــل

[لا إشكال فى الآية]

١٣ — وقد ظن طائفة : أن فى الآية إشكالا ، أو تناقضاً فى الظاهر ، حيث قال : « كل من عند الله » ثم فرّق بين الحسنات والسيئات ، فقال : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وهذا من قلة فهمهم ، وعدم تدبرهم الآية ، وليس فى الآية تناقض ، لا فى ظاهرها ولا فى باطنها ، لا فى لفظها ولا فى معناها ، فإنه ذكر عن المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، الناكصين عن الجهاد ماذكره بقوله : ﴿ أينما تـكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك﴾[2] هذا يقولونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بسبب ما أمرتنا من دينك والرجوع عما كنا عليه . أصابتنا هذه السيئات لأنك أمرتنا بما أوجبها . فالسيئات : هى المصائب ، والأعمال التى ظنوا أنها سبب المصائب : هو أمرهم بها .

وقولهم « من عندك » تتناول مصائب الجهاد التى توجب الهزيمة ، لأنه أمرهم بالجهاد ، وتتناول المصائب أيضاً مصائب الرزق على جهة التشاؤم والتطيّر ، أى هذا عقوبة لنا بسبب دينك . كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى وبمن معه

---

(١) الحجرات ٧ .

(٢) النساء ٧٨ .

وكما قال أهل القرية للمرسلين : ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾[١] وكما قال الكفار من ثمود لصالح ولقومه : ﴿ اطيرنا بك وبمن معك ﴾[٢] فكانوا يقولون عما يصيبهم - من الحرب والزلزال والجراح والقتل ، وغير ذلك مما يحصل من العدو - هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك ، ويقولون عن هذا ، وعن المصائب السماوية : إنها منك ؛ أى بسبب طاعتك لك ، واتباعنا لدينك : أصابتنا هذه المصائب ، كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإنه أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ﴾[٣] .

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول ، وفعل ما بعث به : مسبباً لشر أصابه : إما من السماء ، وإما من آدمى . وهؤلاء كثيرون .

لم يقولوا : « هذه من عندك » بمعنى : أنك أنت الذى أحدثتها ، فإنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً من ذلك ، ولم يكن قولهم « من عندك » خطاباً من بعضهم لبعض ، بل هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

[قول أعداء الرسل]

١٤ — ومن فهم هذا تبين له أن قوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ولا يناقض قوله : « كل من عند الله » ، بل هو محقق له ، لأنهم - هم ومن أشبههم إلى يوم القيامة - يجعلون ماجاء به الرسول ، والعمل به : سبباً لما قد يصيبهم من مصائب ، وكذلك من أطاعه إلى يوم القيامة .

وكان تارة يقدحون فيما جاء به ، ويقولون : ليس هذا لما أمر الله به ، ولو كان مما أمر الله به : لما جرى على أهله هذا البلاء .

---

(١) يس ١٨ . (٢) النمل ٤٧ . (٣) الحج ١١ .

وتارة لا يقدحون فى الأصل؛ لكن يقدحون فى القضية المعينة فيقولون: هذا بسوء تدبير الرسول. كما قال عبد الله بن أبى بن سلول يوم أحد ـ إذ كان رأيه مع رأى النبى صلى الله عليه وسلم: أن لا يخرجوا من المدينة ـ فسأله صلى الله عليه وسلم ناس ممن كان له رغبة فى الجهاد: أن يخرج، فوافقهم، ودخل بيته ولبس لأمته. فلما لبس لأمته ندموا. وقال للنبى صلى الله عليه وسلم: « أنت أعلم. فإن شئت أن لا نخرج، فلا نخرج. فقال: ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن ينزعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » يعنى: أن الجهاد يلزم بالشروع، كما يلزم الحج. لا يجوز ترك ما شرع فيه منه إلا عند العجز بالإحصار فى الحج.

فصـــــل

[تطيرهم بالمرسلين]

١٥ ـــ والمفسرين ذكروا فى قوله: « وإن تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك » هذا وهذا.

فعن ابن عباس، والسدى، وغيرهما: أنهم يقولون هذا تشاؤماً بدينه. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال بسوء تدبيرك ـ يعنى كما قاله عبد الله ابن أبى وغيره يوم أحد ـ وهم كالذين ﴿ قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾.

فبكل حال قولهم: « من عندك » هو طعن فيما أمر الله به ورسوله: من الإيمان والجهاد، وجعل ذلك هو الموجب للمصائب التى تصيب المؤمنون المطيعين. كما أصابتهم يوم أحد. وتارة تصيب عدوهم، فيقول الكافرون: هذا بشؤم هؤلاء. كما قال أصحاب القرية للمرسلين: « إنا تطيرنا بكم »، وكما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة، قالوا لنا هذه. وإن تصبهم

سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله . ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[1] ، وقال الله تعالى عن قوم صالح : ﴿قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال : طائركم عند الله . بل أنتم قوم تفتنون﴾[2] .

ولما قال أهل القرية ﴿إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا : طائركم معكم أئن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون﴾[3] .

قال الضحاك فى قوله : « ألا إنما طائرهم عند الله » يقول : الأمر من قِبَل الله . ما أصابكم من أمر ، فمن الله ، بما كسبت أيديكم . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس « معايبكم » وقال قتادة : « عملكم عند الله » .

وفى رواية غير على : عملكم عند الله « ولكنكم قوم تفتنون » أى تبتلون بطاعة الله ومعصيته . رواهما ابن أبى حاتم وغيره .

وعن ابن إسحاق قال : قالت الرسل : « طائركم معكم » أى أعمالكم .

[معنى « الطائر »]

١٦ — فقد فسروا « الطائر » بالأعمال وجزائها لأنهم كانوا يقولون : إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل وأتباعهم .

فبين الله سبحانه . أن طائرهم ـ وهو الأعمال وجزاؤها ـ هو عند الله . وهو معهم . فهو معهم لأن أعمالهم وما قدّر من جزائها معهم كما قال تعالى : ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾[4] وهو من الله . لأن الله تعالى قدّر تلك المصائب بأعمالهم ، فمن عنده تتنزل عليهم المصائب ، جزاء على أعمالهم ، لا بسبب الرسل وأتباعهم .

وفى هذا يقال : إنهم إنما يجزون بأعمالهم ، لا بأعمال غيرهم . ولذلك قال

---

(١) الأعراف ١٣١ . (٢) النمل ٤٧ .
(٣) يس ١٨ ، ١٩ . (٤) الإسراء ١٣ .

فى هذه الآية ـ لما كان المنافقون والكفار ومن فى قلبه مرض يقول : هذا الذى أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد ، عقوبة دينية وصل إلينا ـ بيّن سبحانه : أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم .

ففى هذا ردّ على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا تصيبه تلك المصائب ، وعلى من انتسب إلى الإيمان بالرسول ، ونسبها إلى فعل ما جاء به الرسول ، وعلى ما أصابته مع كفره بالرسول، ونسبها إلى ما جاء به الرسول .

فصل

[طاعة الرسول ، فتح وخير]

١٧ ـ والمقصود : أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سبباً لشىء من المصائب . ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سبباً لمصيبة ، بل طاعة الله والرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيرى الدنيا والآخرة . ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم ، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول ، كما لحقهم يوم أُحد بسبب ذنوبهم ، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

[الابتلاء]

١٨ ـ وكذلك ما ابتلوا به فى السراء والضراء والزلزال: ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم ، ولكن امتحنوا به ، ليتخلصوا مما فيهم من الشر ، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ، ليتميز طيبه من خبيثه والنفوس فيها شر ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه . قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحّص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ﴾[1] قال

(١) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

تعالى ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحِّص ما فى قلوبكم ﴾[١] ولهذا قول صالح عليه السلام لقوله « طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون » .

[المصائب أجر للمؤمنين]

١٩ — ولهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين ، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم ، وما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدى العدو ، فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من غازية يغزون فى سبيل الله ، فيسلمون ويغنمون إلا تعجلوا ثلثى أجرهم ، وإن أصيبوا وأخفقوا : تم لهم أجرهم » .

وأما ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب : فذاك يكتب لهم به عمل صالح ، كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٢] .

وشواهد هذا كثيرة .

فصــــل

[محمد لا يأتى ـ من عند نفسه ـ لا بنعمة ولا بمصيبة]

٢٠ — والمقصود : أن قوله « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل : كل من عند الله » فإنهم جعلوا ما يصيبهم من المصائب بسبب ما جاءهم به الرسول ، وكانوا يقولون : النعمة التى تصيبنا هى من عند الله ، والمصيبة من عند محمد . أى بسبب دينه وما أمر به .

---

(١) آل عمران ١٥٤ (٢) التوبة ١٢٠ .

فقال تعالى : قل هذا وهذا من عند الله . لا من عند محمد . محمد لا يأتى لا بنعمة ولا بمصيبة : ولهذا قال بعد هذا : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » .

قال السدى وغيره : هو القرآن ؛ فإن القرآن إذا هم فقهوا ما فيه تبين لهم أنه إنما أمرهم بالخير ، والعدل والصدق ، والتوحيد . لم يأمرهم بما يكون سبباً للمصائب ، فإنهم إذا ما فهموا ما فى القرآن علموا أنه لا يكون سبباً للشر مطلقاً .

وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم بالأمر به حسنه ونفعه ، وأنه مصلحة للعباد . وليس كما يقول من يقول : قد يأمر الله العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه ، بل فيه مضرة لهم .

فإنه لو كان كذلك لكان قد يصدقه المتطيرون بالرسل وأتباعهم .

* * *

ومما يوضح ذلك أنه لما قال « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » قال بعدها : « وأرسلناك للناس رسولا . وكفى بالله شهيداً » فإنه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات والمعجزات . وإذا شهد الله له كفى به شهيداً . ولم يضره جحد هؤلاء لرسالته ، بما ذكروه من الشُّبه التى هى عليهم لا لهم ، بما أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتهم حجة على إبطال رسالته . والله تعالى قد شهد له : أنه أرسله للناس رسولا ، فكان ختم الكلام بهذا إبطالا لقولهم ، إن المصائب من عند الرسول . ولهذا قال بعد هذا « من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولَّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

فصــل

[إبطال قول الجهمية والجبرية]

٢١ — وكان فيما ذكره إبطال لقول الجهمية المجبرة ونحوهم ، ممن يقول: إن الله قد يعذب العباد بلا ذنب. وأنه قد يأمر العباد بما لا ينفعهم ، بل بما يضرهم ، فإن فعلوا ما أمرهم به حصل لهم الضرر ، وإن لم يفعلوه عاقبهم .

يقولون هذا ومثله ، ويزعمون أن هذا لأنه يفعل ما يشاء .

والقرآن يرد على هؤلاء من وجوه كثيرة ، كما يرد على المكذبين بالقدر .

فالآية ترد على هؤلاء وهؤلاء ، كما تقدم ، مع احتجاج الفريقين بها . وهى حجة على الفريقين .

* * *

فإن قال نفاة القدر : إنما قال فى الحسنة : « هى من الله » وفى السيئة : « هى من نفسك » لأنه يأمر بهذا ، وينهى عن هذا ، باتفاق المسلمين .

قالوا : ونحن نقول : المشيئة ملازمة للأمر . فما أمر به فقد شاءه ، وما لم يأمر به لم يشأه . فكانت مشيئته وأمره حاضة على الطاعة دون المعصية ؛ فلهذا كانت هذه منه دون هذه .

قيل : أما الآية : فقد تبين أن الذين قالوا : « الحسنة من عند الله ، والسيئة من عندك » أرادوا : من عندك يا محمد ، أى بسبب دينك ، فجعلوا رسالة الرسول هى سبب المصائب . وهذا غير مسألة القدر .

وإذا كان قد أريد : أن الطاعة والمعصية ـ مما قد قيل ـ كان قوله : « كل من عند الله » حجة عليكم كما تقدم .

وقوله بعد هذا : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » لا ينافى ذلك. بل « الحسنة » أنعم الله بها وبثوابها . و « السيئة » هى

من نفس الإنسان ناشئة ، وإن كانت بقضائه وقدره ، كما قال تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾[١] فمن المخلوقات ماله شر ، وإن كان بقضائه وقدره .

وأنتم تقولون : الطاعة والمعصية هما من إحداث الإنسان ، بدون أن يجعل الله هذا فاعلا وهذا فاعلا ، وبدون أن يخص الله المؤمن بنعمة ورحمة أطاعه بها ، وهذا مخالف للقرآن .

فصـــل

[الفرق بين الحسنات والسيئات]

٢٢ — فإن قيل : إذا كانت الطاعات والمعاصي مقدرة ، والنعم والمصائب مقدرة . فما الفرق : الحسنات ، التي هي النعم ، والسيئات ، التي هي المصائب ؟ فجعل هذه من عند الله ، وهذه من نفس الإنسان ؟

قيل : لفروق بينهما :

الفرق الأول : أن نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتلاء بلا سبب منهم أصلا ، فهو ينعم بالعافية والرزق والنصر وغير ذلك على من لم يعمل خيراً قط، وينشىء للجنة خلقاً يسكنهم فضول الجنة ، وقد خلقهم فى الآخرة لم يعملوا خيراً . ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنة برحمته بلا عمل ، وأما العقاب: فلا يعاقب أحداً إلا بعمله .

الفرق الثانى : أن الذى يعمل الحسنات . إذا عملها ، فنفس عمله الحسنات : هو من إحسان الله ، وبفضله عليه بالهداية والإيمان ، كما قال أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾[٢] .

وفى الحديث الصحيح : « يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ،

---

(١) الفلق ٢ . (٢) الأعراف ٤٣ .

ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » .

فنفس خلق الله لهم أحياء ، وجعله لهم السمع والأبصار والأفئدة ، هو من نعمته . ونفس إرسال الرسول إليهم ، وتبليغه البلاغ المبين الذى اهتدوا به : هو من نعمته : وإلهامهم الإيمان ، وهدايتهم إليه ، وتخصيصهم بمزيد نعمة حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين ، هو من نعمته : كما قال تعالى : ﴿ ولكن الله حبّب إليكم الإيمان ، وزيّنه فى قلوبكم . وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة ﴾[1] .

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خيرى الدنيا والآخرة . هو نعمة محضة منه بلا سبب سابق يوجب لهم حقاً . ولا حول ولا قوة لهم من أنفسهم إلا به . وهو خالق نفوسهم ، وخالق أعمالها الصالحة ، وخالق الجزاء .

فقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله » حق من كل وجه ، ظاهراً وباطناً على مذهب أهل السنة .

وأما « السيئة » فلا تكون إلا بذنب العبد . وذنبه من نفسه . وهو لم يقل : إنى لم أقدر ذلك ولم أخلقه ، بل ذكر للناس ما ينفعهم .

فصل

[الشكر والاستغفار]

٢٣ — فإذا تدبّر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله ، فشكر الله . فزاده الله من فضله عملا صالحاً ، ونعماً يفيضها عليه ، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه ، استغفر وتاب ، فزال عنه سبب الشر ،

---

(١) الحجرات ٧ ، ٨ .

فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً ، فلا يزال الخير يتضاعف له ، والشر يندفع عنه ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته : « الحمد لله » فيشكر الله ثم يقول « نستعينه ونستغفره » نستعينه على الطاعة ، ونستغفره من المعصية . ثم يقول « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » فيستعيذ به من الشر الذى فى النفس ، ومن عقوبة عمله : فليس الشر إلا من نفسه ومن عمل نفسه . فيستعيذ الله من شر النفس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا ، ثم إذا عمل استعاذ بالله من سيئات عمله ، ومن عقوبات عمله فاستعانه على الطاعة وأسبابها . واستعاذ به من المعصية وعقابها .

فعلم العبد بأن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمن نفسه . يوجب له هذا وهذا . فهو سبحانه فرّق بينهما هنا ، بعد أن جمع بينهما فى قوله : « قل كل من عند الله » .

فبيّن أن الحسنات والسيئات : النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصى . على قول من أدخلها فى « من عند الله » .

ثم بيّن الفرق الذى ينتفعون به . وهو أن هذا الخير من نعمة الله ، فاشكروه يزدكم . وهذا الشر من ذنوبكم فاستغفروه يدفعه عنكم .

قال الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾[١] وقال تعالى ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير . أن لا تعبدوا إلا الله : إننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[٢] .

[التأسى بالسعداء]

٢٤ — والمذنب إذا استغفر ربه من ذنبه فقد تأسّى بالسعداء من الأنبياء

(١) الأنفال ٣٣ . (٢) هود ١ ــ ٣ .

والمؤمنين كآدم وغيره وإذا أصرّ واحتج بالقدر . فقد تأسى بالأشقياء ، كإبليس ومن اتبعه من الغاوين .

فكان من ذكره : أن السيئة من نفس الإنسان بذنوبه ، بعد أن ذكر : أن الجميع من عند الله ، تنبيهاً عن الاستغفار والتوبة ، والاستعاذة بالله من شر نفسه وسيئات عمله والدعاء بذلك فى الصباح والمساء ، وعند المنام ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أبا بكر الصديق ، أفضل الأمة ، حيث علمه أن يقول : «اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً ، أو أجّره إلى مسلم » .

فيستغفر مما مضى . ويستعيذ مما يستقبل . فيكون من حزب السعداء .

وإذا علم أن الحسنة من الله ـ الجزاء والعمل ـ سأله أن يعينه على فعل الحسنات بقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وبقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم﴾ وقوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾[١] ونحو ذلك .

وأما إذا أخبر أن الجميع من عند الله فقط ، ولم يذكر الفرق : فإنه يحصل من هذه التسوية ، إعراض العاصى والمذنب عن ذم نفسه ، وعن التوبة من ذنوبها ، والاستعاذة من شرها . بل وقام فى نفسه ، أن يحتج على الله بالقدر : وتلك حجة داحضة ، لا تنفعه : بل تزيده عذاب وشقاء ، كما زادت إبليس لما قال : ﴿ فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾[٢] وقال ﴿ رب بما أغويتنى لأزيننّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين ﴾[٣] :

وكالذين يقولون يوم القيامة : ﴿لو أن الله هدانى لكنت من المتقين﴾[٤] وكالذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شىء ﴾[٥] .

---

(١) آل عمران ٨ .　(٢) الأعراف ١٦ .　(٣) الحجر ٣٩ .
(٤) الزمر ٥٧ .　(٥) الأنعام ١٤٨ .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه ، وأعرض عما أمر الله ، من التوبة والاستغفار ، والاستعانة بالله ، والاستعاذة به ، واستهدائه : كان من أخسر الناس فى الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجميع .

فصـــل

[مضاعفة الحسنات]

٢٥ — الفرق الثالث ـ أن الحسنة يضاعفها وينميها ويثيبُ على الهم بها والسيئة لا يضاعفها ، ولا يؤاخذ على الهمّ بها . فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل . وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله . قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون ﴾[1] .

الفرق الرابع ـ أن الحسنة مضافة إليه ، لأنه أحسن بها من كل وجه ، كما تقدم . فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه . وأما السيئة فهو إنمـا يخلقها بحكمة . وهى باعتبار تلك الحكمة من إحسانه . فإن الرب لا يفعل سيئة قط . بل فعله كله حسن وحسنات . وفعله كله خير .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح : « والخير بيديك ، والشر ليس إليك » فإنه لا يخلق شراً محضاً . بل كل ما يخلقه نفيه حكمة . هو باعتبارها خير . ولـكن قد يكون فيه شر لبعض الناس . وهو شر جزئى إضافى . فأما شر كلى ، أو شر مطلق ، فالرب منزه عنه . وهذا هو الشر الذى ليس إليه .

وأما الشر الجزئى الإضافى : فهو خير باعتبار حكمته . ولهذا لا يضاف

---

(١) الأنعام ١٦٠ .

الشر إليه مفرداً قط . بل إما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، كقوله : ﴿ وخلق كل شىء ﴾[(١)] .

وإما أن يضاف إلى السبب كقوله : ﴿ من شر ما خلق ﴾[(٢)] .

وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : ﴿ وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾[(٣)] .

* * *

[القدر بين المغالين فيه والمكذبين به]

٢٦ — وهذا الموضع ضلّ فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل: فرقة كذبت بهذا ، وقالت : إنه لا يخلق أفعال العباد ، ولا يشاء كل ما يكون ، لأن الذنوب قبيحة ، وهو لا يفعل القبيح ، وإرادتها قبيحة ، وهو لا يريد القبيح.

وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة ، بل قالت إذا كان يخلق هذا : فيجوز أن يخلق كل شر ، ولا يخلق شيئاً لحكمة ، وما ثم فعل تنزه عنه ، بل كل ما كان ممكناً جاز أن يفعله . وجوّزوا : أن يأمر بكل كفر ومعصية ، وينهى عن كل إيمان وطاعة ، وصدق وعدل ، وأن يعذّب الأنبياء وينعّم الفراعنة والمشركين ، وغير ذلك ، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول .

وهذا منكر من القول وزور ، كالأول . وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾[(٤)] ، وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ﴾[(٥)] وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[(٦)] ، ونحو ذلك ، يوجب

(١) الفرقان ٢ . (٢) الفلق ٢ . (٣) الجن ١٠ .
(٤) الجاثية ٢١ . (٥) القلم ٣٥ ، ٣٦ . (٦) ص ٢٨ .

أن يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين المحسن والمسيء . وأن من جوّز عليه التسوية بينهما ، فقد أتى بقول منكر ، وزور ينكر عليه .

[الحكمة فى تعذيب الحيوان]

٢٧ ـ وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان : لا يكون فيه حكمة ، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله .

وليس إذا وقع فى المخلوقات ما هو شر جزئى بالإضافة ، يكون شراً كلياً عاماً ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد ، كالمطر العام وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضى : أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذاباً عليه بالمعجزات التى أيّد بها أنبياءه الصادقين ، فإن هذا شر عـام للناس ، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وليس هذا كالملك الظالم ، والعدو . فإن الملك الظالم : لابد أن يدفع الله من به الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم ، خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قدر كثرة ظلمه ، فذاك ضرر فى الدين ، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها ، ويرجعون فيها إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو .

وأما من يكذب على الله ، ويقول ـ أى يدعى ـ أنه نبى : فلو أيده الله تأييد الصادق ، للزم أن يسوى بينه وبين الصادق ، فيستوى الهدى والضلال ، والخير والشر ، وطريق الجنة وطريق النار ، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا . وهذا ما يوجب الفساد العام للناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتال من يقاتل على الدين الفاسد

من أهل البدع ، كالخوارج . وأمر بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم ، ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة .

وأما المتنبئون الكذابون : فلا يطيل تمكينهم . بل لا بد أن يهلكهم لأن فسادهم عام فى الدين والدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل : لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً . فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾[2] فأخبر : أنه ـ بتقدير الافتراء ـ لا بد أن يعاقب من افترى عليه .

فصــــل

[الشر الخاص ، والعام]

٢٨ — وهذا الموضع مما اضطرب فيه الناس . فاستدلت القدرية النفاة والمجبرة على أنه إذا جاز أن يضل شخصاً : جاز أن يضل كل الناس ، وإذا جاز أن يعذّب حيواناً بلا ذنب ولا عوض : جاز أن يعذب كل حى بلا ذنب ولا عوض . وإذا جاز عليه أن لا يعين واحداً ممن أمره على طاعة أمره ، جاز أن لا يعين كل الخلق . فلم يفرق الطائفتان بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافى والشر المطلق . ولم يجعلوا فى الشر الإضافى حكمة يصير بها من قسم الخير .

ثم قال النفاة : وقد علم أنه منزه عن تلك الأفعال . فإنا لو جوزنا عليه هذا لجوزنا عليه تأييد الكذاب بالمعجزات ، وتعذيب الأنبياء وإكرام الكفار ، وغير ذلك ، مما يستعظم العقلاء إضافته إلى الله تعالى . فقالت المثبتة من الجهمية المجبرة : بل كل الأفعال جائزة عليه ، كما جاز ذلك على الخاص : وإنما يعلم أنه لا يفعل بما لا يفعل ، أو بفعل ما يعمل : بالخير ، خبر الأنبياء عنه . وإلا فمهما قدر ؛ جاز أن يفعله . وجاز أن لا يفعله ليس فى نفس

---

(١) الحاقة ٤٤ ـ ٤٦ .   (٢) الشورى ٢٤ .

الأمر سبب ولا حكمة ، ولا صفة تقتضى التخصيص ببعض الأفعال دون بعض بل ليس إلا مشيئة ، نسبتها إلى جميع الحوادث سواء . ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح .

فقيل لهم : فيجوز تأييد الكذاب بالمعجز . فلا يبقى المعجز دليلا على صدق الأنبياء . فلا يبقى خبر نبي يعلم به الفرق . فيلزم – مع الكفر بالأنبياء – أن لا يعلم الفرق ، ولا يسمع ولا يعقل .

[المعجزات]

٢٩ — فاحتالوا للفرق بين المعجزات وغيرها . بأن تجويز إتيان الكذاب بالمعجزات يستلزم تعجيز البارى تعالى عما به يفرق بين الصادق والكاذب . أو لأن دلالتها على الصدق معلوم بالاضطرار . كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع . وبين خطأ الطائفين . وأن هؤلاء الذين اتبعوا جهماً فى الخبر – ونفوا حكمة الله ورحمته ، والأسباب التى بها يفعل ، وما خلقه من القوى وغيرها – هم مبتدعة مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول . كما أن القدرية النفاة : مخالفون للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مع مخالفتهم لصريح المعقول .

فصـــل

والمقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وأن هذه تقتضى : أن العبد لا يزال شاكراً مستغفراً .

[إضافة الشر إلى الله]

٣٠ — وقد ذكر : أن الشر لا يضاف إلى الله ، إلا على أحد الوجوه الثلاثة . وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة ، هو سبحانه : الرحمن الذى وسعت

رحمته كل شيء . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه ، وهو الغفور الودود ، الحليم الرحيم .

فإرادته : أصل كل خير ونعمة ، وكل خير ونعمة فمنه ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾(١) .

وقد قال سبحانه : ﴿ نبيء عبادى : أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ثم قال : ﴿وأن عذابى هو العذاب الأليم(٢)﴾ وقال تعالى : ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾(٣) فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه . فهى من موجب نفسه المقدسة ، ومقتضاها ولوازمها .

وأما العذاب : فمن مخلوقاته ، الذى خلقه بحكمة ، هو باعتبارها حكمة ورحمة ، فالإنسان لا يأتيه الخير إلا من ربه وإحسانه وجوده . ولا يأتيه الشر إلا من نفسه . فما أصابه من حسنة : فمن الله . وما أصابه من سيئة : فمن نفسه .

* * *

[خطاب الرسول فى القرآن]

٣١ — وقوله : « وما أصابك » إما أن تكون كاف الخطاب له صلى الله عليه وسلم — كما قال ابن عباس وغيره — وهو الأظهر . لقوله بعد ذلك : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ .

وإما أن تكون لكل واحد من الآدميين ، كقوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾(٤) .

لكن هذا ضعيف ، فإنه لم يتقدم هنا ذكر الإنسان ولا مكانه . وإنما تقدم ذكر طائفة قالوا ما قالوه . فلو أريد ذكرهم : لقيل : « ما أصابهم من حسنة فمن الله وما أصابهم من سيئة » .

---

(١) النحل ٥٣ (٢) الحجر ٤٩ ، ٥٠ (٣) المائدة ٩٨ (٤) الانفطار ٦ .

لـكن خوطب الرسول بهذا ، لأنه سيد ولد آدم . وإذا كان هذا حكمه كان هذا حكم غيره بطريق الأولى والأحرى . كما فى مثل قوله : ﴿ اتق الله ولا تطع الـكافرين والمنافقين ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾[٢] وقوله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . فاسأل الذين يقرأون الـكتاب من قبلك ﴾[٣] .

ثم هذا الخطاب نوعان : نوع يختص لفظه به . لـكن يتناول غيره بطريق الأولى ، كقوله : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ﴾ ؟ ثم قال : ﴿ قد فرض الله لـكم تحلة أيمانـكم ﴾[٤] .

ونوع : قد يكون خطابه به خطاباً لجميع الناس ، كما يقول كثير من المفسرين : الخطاب له . والمراد غيره .

وليس المعنى أنه لم يخاطب بذلك ، بل هو المقدم . فالخطاب له خطاب لجميع الجنس البشرى ، وإن كان هو لا يقع منه ما نهى عنه . ولا يترك ما أمر به . بل هذا يقع من غيره . كما يقول ولى الأمر للأمير : سافر غداً إلى المـكان الفلانى . أى أنت ومن معك من العسكر . وكما ينهى أعز من عنده عن شيء . فيـكون نهياً لمن دونه . وهذا معروف من الخطاب .

فقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الخطاب له صلى الله عليه وسلم . وجميع الخلق داخلون فى هذا الخطاب بالعموم ، وبطريق الأولى . بخلاف قوله : « وأرسلناك للناس رسولا » فإن هذا له خاصة . ولـكن من يبلغ عنه يدخل فى معنى الخطاب . كما قال صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عنى ولو آية » وقال : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه » وقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » وقال : « إن العلماء ورثة الأنبياء »

---

(١) الأحزاب ١ . (٢) الزمر ٦٥ .
(٣) يونس ٩٤ . (٤) التحريم ١ ، ٢ .

وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[1] .

* * *

[أفعال الله الحسنة]

٣٢ — والمقصود هنا : أن « الحسنة » مضافة إليه سبحانه من كل وجه و « السيئة » مضافة إليه لأنه خلقها كما خلق « الحسنة » فلهذا قال : « كل من عند الله » . ثم إنه إنما خلقها لحكمة . ولا تضاف إليه من جهة أنها سيئة، بل تضاف إلى النفس التى تفعل الشر بها لا لحكمة . فتستحق أن يضاف الشر والسيئة إليها . فإنها لا تقصد بما تفعله من الذنوب خيراً ، يكون فعله لأجله أرجح . بل ما كان هكذا فهو من باب الحسنات . ولهذا كان فعل الله حسناً ، لا يفعل قبيحاً ولا سيئاً قط .

وقد دخل فى هذا سيئات الجزاء والعمل ، لأن المراد بقوله : « ما أصابك من حسنة ـ ومن سيئة » النعم والمصائب ، كما تقدم . لكن إذا كانت المصيبة من نفسه ـ لأنه أذنب ـ فالذنب من نفسه بطريق الأولى . فالسيئات من نفسه بلا ريب ، وإنما جعلها منه مع الحسنة بقوله : « كل من عند الله » كما تقدم . لأنها لا تضاف إلى الله مفردة ، بل إما فى العموم ، كقوله : « كل من عند الله » .

وكذلك الأسماء التى فيها ذكر الشر ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا « الضار النافع ، المعطى المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾[2] .

وكل ما خلقه ـ مما فيه شر جزئى إضافى ـ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك .

مثل : إرسال موسى إلى فرعون ، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى

---

(١) الأنعام ١٩ . (٢) السجدة ٢٢ .

يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون ـ ما هو إلا خير عام . فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضرّ به . كما قال تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾[١] وقال تعالى بعد ذكر قصته : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٢] .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم شَقِىَ برسالته طائفة من مشركى العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم الله تعالى بسببه ، ولكن سَعِدَ بها أضعاف أضعاف هؤلاء .

ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدّلين محرّفين قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأهلك الله بالجهاد طائفة . واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك .

والذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار ، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار ، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم ، لئلا يعظم كفرهم ، ويكثر شرهم .

ثم بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلا الله . وهم دائماً يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد .

فالمصلحة بإرساله وإعزازه ، وإظهار دينه ، فيها من الرحمة التى حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئى إضافى ، لما فى ذلك من الخير والحكمة أيضاً ، إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شرّ محض أصلا ، بل هو شر بالإضافة .

---

(١) الزخرف ٥٥ ، ٥٦ . (٢) النازعات ٢٦ .

فصـــل

[الحسنات أمور وجودية]

٣٣ – الفرق الخامس : أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التى يعملها كلها أمور وجودية . أنعم الله بها عليه ، وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ، ليس فى الحسنات أمر عدمى غير مضاف إلى الله ، بل كلها أمر وجودى . وكل موجود وحادث فالله هو الذى يحدثه .

وذلك : أن الحسنات إما فعل مأمور به ، أو ترك منهى عنه . والترك : أمر وجودى . فترك الإنسان لما نهى عنه ، ومعرفته بأنه ذنب قبيح ، وبأنه سبب للعذاب ، وبغضه وكراهته له ، ومنع نفسه منه إذا هويته ، واشتهته وطلبته . كل هذه أمور وجودية ، كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل والصدق ـ حسنة ، وفعله لها أمور وجودية .

ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محباً لها بنيّة وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه ، وطاعة لله ولرسوله ، ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها ، والامتناع منها . قال تعالى: ﴿ولكن الله حبّب إليكم الإيمان ، وزيّنه فى قلوبكم ، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[3] .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلاّ لله . ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى فى النار » .

---

(١) الحجرات ٧ . (٢) النازعات ٤١ . (٣) العنكبوت ٤٥ .

وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه وسلم : «أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله ، والبغض فى الله » .

وفيها عن أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » .

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ؛ وذلك أضعف الإيمان » .

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ـ لما ذكر الخلوف ـ قال : « من جاهدهم بيديه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وقد قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أُسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم وبدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ، حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرنَّ لك ، وما أملك لك من الله من شىء ﴾[1] .

وقال على لسان الخليل : ﴿ إنى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾[2] وقال : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى ، إلا رب العالمين ﴾[3] وقال : ﴿ فلما أفلت ، قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[4] .

فهذا البغض والعداوة والبراءة مما يعبد من دون الله ومن عابديه : هى أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح ، كما أن حب الله وموالاته

---

(١) الممتحنة ٤ .
(٢) الزخرف ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الشعراء ٧٥ـ٧٧ .
(٤) الأنعام ٧٨ ، ٧٩ .

وموالاة أوليائه : أمور موجودة فى القلب ، وعلى اللسان والجوارح وهى تحقيق قول : « لا إله إلا الله » ، وهو إثبات تأليه القلب لله حباً خالصاً وذلا صادقاً . ومنع تأليهه لغيرالله ، وبغض ذلك وكراهته ، فلايعبد إلا الله . ويجب أن يعبده ويبغض عبادة غيره . ويجب التوكل عليه وخشيته ودعاءه ويبغض المتوكل على غيره وخشيته ودعاءه .

فهذه كلها أمور موجودة فى القلب ، وهى الحسنات التى يثيب الله عليها .

وأما مجرد عدم السيئات ، من غير أن يعرف أنها سيئة ، ولا يكرهها ، بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله ، أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لا يحبها ولا يبغضها ـ فهذا لا يثاب على عدم مايفعله من السيئات ، ولكن لا يعاقب أيضاً على فعلها ، فكأنه لم يفعلها ، فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل والمجنون والبهيمة ، لاثواب ولاعقاب .

ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها ، فإن لم يعتقد تحريمهاويكرهها وإلا عوقب على ترك الإيمان بتحريمها .

فصـــــل

[هل الترك أمر وجودى أو عدمى]

٣٤ — وقد تنازع الناس فى الترك : هل هو أمر وجودى أو عدمى ؟ والأكثرون على أنه وجودى .

وقالت طائفة — كأبى هاشم الجبائى — إنه عدمى وأن المأمور يعاقب على مجرد عدم الفعل ، لا على تركٍ يقوم بنفسه . ويسمون « الذمّية » لأنهم رتبوا الذم على العدم المحض .

الأكثرون يقولون : الترك أمروجودى . فلا يثاب من ترك محظور إلا على ترك يقوم بنفسه . وتارك الأمور : إنما يعاقب على ترك يقوم بنفسه ، وهو أن يأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل فيمتنع . فهذا الامتناع أمر وجودى .

ولذلك فهو يشتغل عما أمر به بفعل ضده ، كما يشتغل عن عبادة الله وحده بعبادة غيره ، فيعاقب على ذلك .

[الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان]

٣٥ — ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلابد أنه يكون عابداً لغيره يعبد غيره فيكون مشركا . وليس فى بنى آدم قسم ثالث ، بل إما موحِّد ، أو مشرك ، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل ، والنصارى ومن أشبهم من الضلال المنتسبين إلى الإمام . قال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(١) وقد قال تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾(٢) لما قال إبليس : ﴿ لأزينَّن لهم فى الأرض ولأغوينَّهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾(٣) قال تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

فإبليس لا يغوى المخلصين ولا سلطان له عليهم ، إنما سلطانه على الغاوين . وهم الذين يتولونه ، وهم الذين به مشركون .

وقوله : « الذين يتولونه والذين هم به مشركون » صفتان لموصوف واحد ، فكل من تولاه فهو به مشرك ، وكل من أشرك به فقد تولاه .

قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم ﴾(٤) .

وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء . وقال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ، ثم يقول للملائكة : أهؤلاء

---

(١) النحل ٩٨ — ١٠٠ . (٢) الحجر ٤٢ . (٣) الحجر ٣٩ ، ٤٠
(٤) يس ٦٠ ، ٦١ .

إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن . أكثرهم بهم مؤمنون ﴾[١] .

ولهذا يتمثل الشياطين[٢] لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويخاطبونهم فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى ، أو ولىّ . وإنما هو شيطان ، جعل نفسه ملكا من الملائكة ، كما يصيب عبّاد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات يسمون أسماء ، يقولون : هى أسماء الملائكة ، مثل ميططرون وغيره : وإنما هى أسماء الجن .

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه ، فيظنه النبى . أو الصالح الذى دعاه . وإنما هو شيطان تصور فى صورته ، أو قال : أنا هو ، لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو .

وهذا الشر يجرى لمن يدعو المخلوقين ، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام يدعونهم عند قبورهم ، أو مغيبهم، ويستغيثون بهم. فيأتيهم من يقول: إنه ذلك المستغاث به فى صورة آدمى راكباً ، وإما غير راكب . فيعتقد المغيث أنه ذلك النبى ، والصالح ، أو أنه سره أو روحانيته ، أورقيقته تشكل. أويقول أنه ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان يغويه ، لكونه أشرك بالله ودعا غيره الميت من دونه . فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك . فظن أنه يدعو النبى ، أو الصالح ، أو الملك وأنه هو الذى شفع له ، أو هو الذى أجاب دعوته . وإنما هو الشيطان ، ليزيده غلواً فى كفره وضلاله .

فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين ، فلابد أن يكون مشركا عابداً لغير الله . وهو فى الحقيقة : عابد للشيطان .

---

(١) سبأ ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الشيطان الذى يقول عنه الإمام ابن تيمية إنه يتمثل أو يسمع صوته إنما هو شيطان الإنس .أما شيطان الجن فقد قال الله تعالى عنه : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) .

فكل واحد من بنى آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان . قال تعالى : ﴿ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾[٢] .

فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة : وبسط هذا له موضع آخر .

فصـــــل

والمقصود هنا : أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودى بفعل الحسنات، كعبادة الله وحده ، وترك السيئات، كترك الشرك ـ أمر وجودى.

وفعل السيئات ، مثل ترك التوحيد ، وعبادة غير الله ـ أمر وجودى .

قال تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . وترهقهم ذلة ـ إلى قوله ـ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا : السوأى ، أن كذبوا بآيات الله . وكانوا بها يستهزئون ﴾[٧] .

---

(١) الزخرف ٣٦ ـ ٣٩ (٢) الحج ١٧ . (٣) القصص ٨٤ (٤) الإسراء ٧
(٥) فصلت ٤٦ (٦) يونس ٢٦ ، ٢٧ (٧) الروم ١٠

فأما عدم الحسنات والسيئات ، فجزاؤه عدم الثواب والعقاب .

وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا ، وبقى مدة لايفعل كثيراً من المحرمات . ولا سمع أنها محرمة ، فلم يعتقد تحريمها ، مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولاعلم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ، ولاحرم بالمصاهرة أربعة أصناف ـ حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه ـ فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ، ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك ، فهو لايثاب ولايعاقب .

ولكن إذا علم التحريم فاعتقده : أثيب على اعتقاده ، وإذا ترك ذلك ـ دعاء النفس إليه ـ أثيب ثواباً آخر كالذى تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها ، كالصائم الذى تشتهى نفسه الأكل والجماع فينهاها ، والذى تشتهى نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها ، فهذا يثاب ثواباً آخر ، بحسب نهيه لنفسه ، وصبره على المحرمات ، واشتغاله بالطاعات التى ضدها . فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات .

وإذا تبين هذا : فالحسنات التى يثاب عليها كلها وجودية ، نعمة من الله تعالى ، وما أحبته النفس من ذلك ، وكرهته من السيئات : فهو الذى حَبَّبَ الإيمان إلى المؤمنين وَزَيَّنَهُ فى قلوبهم وكَرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

فصل

[منشأ السيئات : الجهل]

٣٦ — وأما السيئات ، فمنشؤها الجهل والظلم ، فإن أحداً لايفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها .

ولايترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها .

وفى الحقيقة ، فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً ، لم يفعله ، فإن هـذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من الحسنات مايعلم أنه يضره ضرراً راجحاً ، كالسقوط من مكان عال ، أو فى نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل ، أو دخول نار متأججة ، أو رمى ماله فى البحر ونحو ذلك ، لم يفعله ، لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ، ومن لم يعلم أن هذا يضره ، كالصبى ، والمجنون ، والساهى ، والغافل ــ فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على مايضره ــ مع علمه من الضرر عليه ــ فلظنه أن منفعته راجحة .

فأما أن يجزم بضرر موجوح ، أو يظن أن الخير راجح فلابد من رجحان الخير ، إما فى الظن وإما فى المظنون ، كالذى يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ، فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لـكنه يترجح عنده السلامة والربح ، وإن كان مخطئاً فى هذا الظن .

وكذلك الذنوب إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع،لم يسرق،وكذلك الزانى : إذا جزم بأنه يرجم ، لم يزن ، والشارب يختلف حاله ، فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ، ولهذا كان الصحيح ، أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهى إلى القتل ، إذا لم ينته إلا بذلك ، كما جاءت بذلك الأحاديث ، كما هو مذكور فى غير هذا الموضع

وكذلك العقوبات متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لايكون جازماً بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هـذا كله ، ولا يستحضر تحريماً ، ولا وعيداً ، فيبقى غافلا ، غير مستحضر للتحريم : والغفلة من أضداد العلم .

فصـــــل

[أصل الشر ، الشهوة والغفلة]

٣٧ — فالغفلة والشهوة أصل الشر . قال تعالى : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه . وكان أمره فرطاً﴾(١) والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى ، إذا علم قطعاً أن ذلك يضره ضرراً راجحاً : انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل فى النفس حباً لما ينفعها ، وبغضاً لما يضرها ، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً ، بل متى فعلته كان لضعف العقل .

ولهذا يوصف بأنه عاقل ، وذو نهى وذو حجى .

ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان ، لا من مجرد النفس ،فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويأمرها بها ، ويذكر لها ما فيها من المحاسن . التى هى منافع لا مضار . كما فعل إبليس بآدم وحواء . فقال : ﴿يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾(٢) ﴿وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين﴾(٣) .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾(٤) وقال تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾(٥) ، وقال تعالى : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عَدْواً بغير علم . كذلك زينا لكل أمة

---

(١) الكهف ٢٨ .
(٢) طه ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) الأعراف ٢٠ .
(٤) الزخرف ٣٦ .
(٥) فاطر ٨ .

عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾[١] .

وقوله : ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ هو بتوسيط تزيين الملائكة والأنبياء ، والمؤمنين للخير ، وتزيين شياطين الجن والإنس للشر . قال تعالى : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم . وليلبسوا عليهم دينهم ﴾[٢] .

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ، أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة رضى الله عنهم : « كل من عصى الله فهو جاهل » وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . . ثم يتوبون من قريب ﴾[٣] كقوله : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾[٤] . ولهذا يسمى حال فعل السيئات : الجاهلية فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ؟ ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل . ومن تاب قبيل الموت : فقد تاب من قريب .

وعن قتادة قال : « أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على : أن كل من عصى ربه في جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل » وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد : من عمل ذنباً ــ من شيخ ، أو شاب ــ فهو بجهالة ، وقال : من عصى ربه فهو جاهل . حتى ينزع عن معصيته . وقال أيضاً : هو إعطاء الجهل العمد .

---

(١) الأنعام ١٠٨ . (٢) الأنعام ١٣٧ . (٣) النساء ١٧ . (٤) الأنعام ٥٤

وقال مجاهد أيضاً : من عمل سوءا خطأ ، أو إثما عمداً : فهو جاهل ، حتى ينزع منه . وراهن ابن أبي حاتم . ثم قال : روى عن قتادة ، وعمرو بن مرة ، والثوري ، ونحو ذلك خطأ ، أو عمداً .

وروى عن مجاهد والضحاك قالا : ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراماً ، ولكن جهالته : حين دخل فيه .

وقال عكرمة : الدنيا كلها جهالة .

وعن الحسن البصري : أنه سئل عنها ؟ فقال : هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم . قيل له : أرأيت لو كانوا قد علموا ؟ قال : فليخرجوا منها، فإنها جهالة.

[العلم ـ خشية الله]

٣٨ ـ قلت : ومما يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾[1] وكل من خشيه ، وأطاعه ، وترك معصيته : فهو عالم. كما قال تعالى: ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ؟ يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ﴾[2] .

وقوله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » يقتضى أن كل من خشى الله فهو عالم . فإنه لا يخشاه إلا عالم .

ويقتضى أيضاً : أن العالم من يخشى الله . كما قال السلف .

قال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار جهلا » .

---

(١) فاطر ٢٨ . (٢) الزمر ٩ .

ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين ، حصر الأول فى الثانى . وهو مطرد. وحصر الثانى فى الأول نحو قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾[١] ، وقوله : ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[٢] ، وقوله : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[٣] .

ومن ذلك : أنه أثبت الخشية للعلماء ، ونفاها عن غيرهم وهذا كالاستثناء فإنه من النفى : إثبات عند جمهور العلماء . كقولنا « لا إله إلا الله » ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ وقوله : ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾

وقد ذهب طائفة إلى أن المستثنى مسكوت عنه ، لم يثبت له ماذكر ، ولم ينف عنه .

وهؤلاء يقولون ذلك فى صيغة الحصر بطريق الأولى ، فيقولون : نفى الخشية عن غير العلماء ، ولم يثبتها لهم .

والصواب : قول الجمهور : أن هذا كقوله : ﴿قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق﴾[٥] ، فإنه ينفى التحريم عن غير هذه الأصناف ويثبتها لها . لكن أثبتها للجنس . أو لكل واحد ؟ كما يقال : إنما يحج المسلمون . ولا يحج إلا مسلم . وذلك أن المستثنى هل هو مقتض أو شرط ؟

ففى هذه الآية وأمثالها : هو مقتض ، فهو عام ، فإن العلم بما أنذرت به

---

(١) يس ١١ . (٢) النازعات ٤٥ . (٣) السجدة ١٥ ، ١٦ .
(٤) الأنبياء ٢٨ . (٥) الأعراف ٣٣ .

الرسل يوجب الخوف ، فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات، وترك السيئات . وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم . يبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل ، وعدم العلم . وإذا كان كذلك ، فعدم العلم ليس شيئاً موجوداً . بل هو مثل عدم القدرة ، وعدم السمع والبصر ، وسائر الأعدام .

* * *

والعدم : لا فاعل له . وليس هو شيئاً . وإنما الشيء الموجود والله تعالى خالق كل شيء . فلا يجوز أن يضاف العدم المحض إلى الله . لكن قد يقترن به ما هو موجود .

فإذا لم يكن عالماً بالله ، لا يدعوه إلى الحسنات ، وترك السيئات .

والنفس بطبعها متحولة . فإنها حية . والإرادة والحركة الإرادية من لوازم الحياة . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء حارث وهمام » فكل آدمى حارث وهمام . أى عامل كاسب، وهو همام . أى يهم ويريد . فهو متحرك بالإرادة .

وقد جاء فى الحديث : « مثل القلب : مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة ، وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً » .

فلما كانت الإرادة والعمل من لوازم ذاتها : فإذا هداها الله : علّمها ما ينفعها وما يضرها فأرادت ما ينفعها ، وتركت ما يضرها .

فصـــــل

والله سبحانه وتعالى قد تفضل على بنى آدم بأمرين : هما أصل السعادة .

[الفطرة]

٣٩ — أحدهما : أن كل مولود يولد على الفطرة ، كما فى الصحيحين عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه » كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً : فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[١] .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشيطان . وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً » .

فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية ، محبة،تعبده،لاتشرك به شيئاً . ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم ؛ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ ﴾[٢] .

وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع .

[هداية الله]

٤٠ — الثانى : أن الله تعالى قد هدى للناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم ، وبما أنزل إليهم من الكتب ، وأرسل إليهم من الرسل . قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم ﴾[٣] . وقال تعالى

---

(١) الروم ٣٠ .   (٢) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) العلق ١ — ٥ .

﴿الرحمن علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾[3] .

ففى كل أحد مايقتضى معرفته بالحق ومحبته له . وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ، ويمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة ، وجعل فى فطرته محبة لذلك . لكن قديعرض الإنسان بجاهليته وغفلته ــ عن طلب علم ماينفعه . وكونه لا يطلب ذلك ، ولا يريده : أمر عدمى ، ولا يضاف إلى الله تعالى . فلا يضاف إلى الله : لا عدم علمه بالحق ، ولا عدم إرادته للخير .

[طبيعة النفس]

٤١ ــ لكن النفس ــ كما تقدم ــ الإرادة والحركة من لوازمها . فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة وكان مالها من الحياة الطبيعية موجباً لعذابها . فلا هى حية متنعمة بالحياة . ولا هى ميتة مستريحة من العذاب ، قال تعالى : ﴿ فذكّر إن نفعت الذكرى . سيذّكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾[4] فالجزاء من جنس العمل . لما كان فى الدنيا : ليس يحى الحياة النافعة التى خلق لأجلها . بل كانت حياته من جنس حياة البهائم . ولم يكن ميتاً عديم الإحساس : كان فى الآخرة كذلك . فإن مقصود الحياة : هو حصول ما ينفع به الحى ويستلذ به ، والحى لابد له من لذة أو ألم ، فإذا لم تحصل له اللذة ، لم يحصل له مقصود الحياة ، فإن الألم ليس مقصوداً .

كمن هو حى فى الدنيا ، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشىء مما يتنعم به الأحياء ، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ، ولا يحصل له .

(١) الرحمن ١ ــ ٣ .
(٢) الأعلى ١ ــ ٣ .
(٣) البلد ١٠ .
(٤) الأعلى ٩ ــ ١٣ .

فلما كان من طبع النفس اللازم لها : وجود الإرادة والعمل ، إذ هو حارث همام ، فإن عرفت الحق وأرادته وأحبته وعبدته ، فذلك من تمام إنعام الله عليها ، وإلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله ، ومرادات سيئة تضرها ، فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله ولم تعبده ، وهذا عدم لا يضاف إلى فاعل ، ومن كونها بطبعها لابد لها من مراد معبود ، فعبدت غيره ، وهذا هو الشر الذى تعذب عليه ، وهو من مقتضى طبعها مع عدم هداها .

* * *

[غلط القدرية فى « إرادة » الإنسان]

٤٢ — والقدرية يعترفون بهذا جميعه ، وبأن الله خلق الإنسان مريداً ، لكن يجعلون المخلوق كونه مريداً بالقوة والقبول ، أى قابلا لأن يرد هذا وهذا.

أما كونه مريداً لهذا المعين ، وهذا المعين : فهذا عندهم ليس مخلوقاً لله ـ وغلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، فإن الله خالق هذا كله .

وإرادة النفس لما يريده من الذنوب وفعلها : هو من جملة مخلوقات الله تعالى ، فإن الله خالق كل شىء ، وهو الذى ألهم النفس ـ التى سوّاها ـ فجورها وتقواها .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكّها ، أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها » .

وهو سبحانه : جعل إبراهيم وآله أئمة يهدون بأمره ، وجعل فرعون وآله أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .

لكن هذا لا يضاف مفرداً إلى الله تعالى ، لوجهين : من جهة علته الغائية ، ومن جهة سببه وعلته الفاعلة .

أما الغائية : فإن الله إنما خلقه لحكمة هى باعتبارها خير ، لا شر ، وإن كان

شراً إضافياً . فإذا أضيف مفرداً : توهم المتوهم مذهب جهم : أن الله يخلق الشر المحض الذى لا خير فيه لأحد ؛ لا لحكمة ولا رحمة ، والأخبار والسنة والاعتبار تبطل هذا المذهب .

كما أنه إذا قيل : محمد وأمته يسفكون الدماء ، ويفسدون فى الأرض : كان هذا ذماً لهم ، وكان باطلا . وإذا قيل : يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، ويقتلون من منعهم من ذلك : كان هذا مدحاً لهم ، وكان حقاً .

فإذا قيل : إن الرب تبارك وتعالى حكيم رحيم ، أحسن كل شىء خلقه ، وأتقن ما صنع ، هو أرحم الراحمين ؛ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والخير كله بيديه ، والشر ليس إليه ، بل لا يفعل إلا خيراً ، وما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة : فله فيها حكمة عظيمة ، ونعمة جسيمة — كان هذا حقاً ، وهو مدح للرب وثناء عليه .

وأما إذا قيل : إنه يخلق الشر الذى لا خير فيه ولا منفعة لأحد ، ولا له فيها حكمة ولا رحمة . ويعذب الناس بلا ذنب : لم يكن هذا مدحاً للرب ، ولا ثناء عليه ؛ بل كان بالعكس .

ومن هؤلاء من يقول : إن الله تعالى أضر على خلقه من إبليس .

وبسط القول فى بيان فساد قول هؤلاء له موضع آخر .

وقد بيّنا بعض ما فى خلق جهم وإبليس من السيئات : من الحكمة والرحمة . وما لم نعلم أعظم مما علمناه .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، ومالك يوم الدين . الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، الذى لا يحصى العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، الذى له الحمد فى الأولى

والآخرة ، وله الحكم وإليه يرجعون . الذى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته . ولإحسانه إلى عباده ، سبحانه وتعالى ، يستحق أن يحمد لما له فى نفسه من المحامد والإحسان إلى عباده ، هذا حمد شكر ، وذاك حمد مطلقاً .

* * *

[كل ماخلقه الله فهو نعمة للمؤمنين]

٤٣ — وقد ذكرنا ـ فى غير هذا الموضع ـ ما قيل : من أن كل ماخلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين . يستحق أن يحمدوه ويشكروه عليه ، وهو من الآية . ولهذا قال فى آخر سورة النجم ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى؟﴾(١) وفى سورة الرحمن يذكر : ﴿ كل من عليها فانٍ ﴾(٢) ونحو ذلك . ثم يقول عقب ذلك ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

وقال آخرون : منهم الزجاج ، وأبو الفرج ابن الجوزى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلها ينعم بها عليكم فى دلالتها إياكم على وحدانيته . وفى رزقه إياكم ما به قوامكم .

وهذا قالوه فى سورة الرحمن .

وقالوا فى قوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ ﴾ فبأى نعم ربك التى تدل على وحدانيته تتشكك ؟ وقيل : تشك وتجادل ؟ قال ابن عباس : تكذب ؟ .

قلت : قد ضمن « تتمارى » معنى تكذب . ولهذا عداه بالتاء . فإن التمارى تفاعل من المراء . يقال : تمارينا فى الهلال ، والمراء فى القرآن كفر . وهو يكون تكذيب وتشكيك .

وقد يقال : لما كان الخطاب لهم . قال « تتمارى » أى يتمارون ، ولم يقل : تميرك . فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا . قالوا : والخطاب للانسان ، قيل:

---

(١) النجم ٥٥ . (٢) الرحمن ٢٦ .

للوليد بن المغيرة . فإنه قال : ﴿أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى : أن لا تزر وازرة وزر أخرى﴾[١] ثم التفت إليه فقال « فبأى آلاء ربك تتمارى ؟ » تكذبان . كما قال ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟﴾[٢] .

ففى كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده ، يحمد عليه حمد شكر . وله فيه حكمة تعود إليه ، يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته .

لجميع المخلوقات : فيها إنعام على العباد ؟ كالثقلين المخاطبين بقوله «فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ومن جهة أنها آيات للرب ، يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذى يسعدون به فى الدنيا والآخرة . فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته .

والآيات التى بعث بها الأنبياء وأيدهم بها ونصرهم . وإهلاك عدوهم ـ كما ذكره فى سورة النجم ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل ، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى﴾[٣] . يدلهم على صدق الأنبياء فيما أخبروا به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، ما بشروا به وأنذروا به .

ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ قيل : هو محمد . وقيل : هو القرآن . فإن الله سمى كلا منهما بشيراً ونذيراً . فقال فى رسول الله : ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾[٤] وقال تعالى : ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾[٥] وقال تعالى فى القرآن ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً﴾[٦] وهما متلازمان .

---

(١) النجم ٣٦ ـ ٣٨ .
(٢) الرحمن ١٤ ـ ١٦ .
(٣) النجم ٥٠ ـ ٥٤ .
(٤) الأعراف ١٨٨ .
(٥) الفتح ٨ .
(٦) فصلت ٢ .

وكل من هذين المعنيين : مراد . يقال : هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى .

وقوله « من النذر » أى من جنسها . أى رسول من الرسل المرسلين .

ففى المخلوقات : نعم من جهة حصول الهدى والإيمان ، والاعتبار والموعظة بها .

وهذه أفضل النعم .

[نعمة الإيمان : أفضل النعم]

٤٤ — فأفضل النعم : نعمة الإيمان . وكل مخلوق من المخلوقات : فهو الآيات التى يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة . قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾(٢) .

وما يصيب الإنسان ، إن كان يسرّه : فهو نعمة بينة . وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنه يكفّر خطاياه . ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(٣) .

وقد قال فى الحديث : « والله لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وإذا كان هذا وهذا : فكلاهما من نعم الله عليه .

[الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما]

٤٥ — وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر .

أما نعمة الضراء : فاحتياجها إلى الصبر ظاهر . وأما نعمة السراء : فتحتاج

---

(١) يوسف ١١١ (٢) ق ٨ (٣) البقرة ٢١٦

إلى الصبر على الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء . كما قال بعض السلف : ابتلينا بالضراء فصبرنا . وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

وفى الحديث : « أعوذ بك من فتنة الفقراء . وشر فتنة الغنى » .

والفقر يصلح عليه خلق كثير . والغنى : لا يصلح عليه إلا أقل منهم .

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين ، لأن فتنة الفقر أهون . وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر ؛ لكن لما كان فى السراء : اللذة . وفى الضراء : الألم . اشتهر ذلك الشكر فى السراء ، والصبر فى الضراء . قال تعالى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمةً ثم نزعناها منه ، إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ : ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[(١)] ولأن صاحب السراء : أحوج إلى الشكر ، وصاحب الضراء : أحوج إلى الصبر فإن صبر هذا وشكر هذا : واجب . إذا تركه استحق العقاب .

وأما صبر صاحب السراء : فقد يكون مستحباً ، إذا كان عن فضول الشهوات ، وقد يكون واجباً ، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذى هو حسنات ـ يغفر له ما يغفر من سيئاته .

وكذلك صاحب الضراء : لا يكون الشكر فى حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين . وقد يكون تقصيره فى الشكر : مما يغفر له ، لما يأتى به من الصبر ؛ فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً : يكون مع تألم النفس وتلذذها ، يصبر على الألم ، ويشكر على النعم . وهذا حال يعسر على كثير من الناس . وبسط هذا له موضع آخر .

* * *

---

(١) هود ٩ ــ ١١ .

والمقصود هنا : أن الله تعالى منعهم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر الإنعام به فى الابتداء لأكثر الناس . فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه .

[ذنوب الإنسان]

٤٦ — وأما ذنوب الإنسان : فهى من نفسه . ومع هذا فهى - مع حسن العاقبة - نعمة وهى نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان . ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله : « اللهم لا تجعلنى عبرة لغيرى ، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتنى منى » .

وفى دعاء القرآن : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾(١) ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾(٢) كما فيه ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾(٣) أى فاجعلنا أئمة لمن يقتدى بنا ويأتم . ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى .

و « الآلاء » فى اللغة : هى النعم ، وهى تتضمن القدرة .

قال ابن قتيبة : لما عدّد الله فى هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه ، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته . وجعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها .

وقد روى الحاكم فى صحيحه والترمذى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمن حتى ختمها . ثم قال : مالى أراكم سكوتا ؟ الجن كان أحسن منكم رداً . ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة - فبأى آلاء ربكما تكذبان - إلا قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » .

[القرآن كله تذكير بآلاء الله]

٤٧ — والله تعالى يذكر فى القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ،

(١) يونس ٨٥ . (٢) الممتحنة ٥ . (٣) الفرقان ٧٤ .

ويذكر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده ، ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى ، وهي كلها متلازمة .

فكل ما خلق : فهو نعمة ، ودليل على قدرته وعلى حكمته .

لكن نعمة الرزق ، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس : ظاهرة لكل أحد ، فلهذا يستدل بها ، كما في سورة النحل : وتسمى سورة النعم . كما قاله قتادة وغيره .

[الفرق بين الحمد والشكر]

٤٨ — وعلى هذا : فكثير من الناس يقول :

الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه ، فإنه يكون على نعمة وعلى غير نعمة. والشكر أعم من جهة أنواعها . فإنه يكون بالقلب واللسان واليد .

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة : لم يكن الحمد إلا نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده .

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم . والجهمية والجبرية : بمعزل عن هذا .

وكذلك كل ما يخلقه : ففيه له حكمة . فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة . والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا .

وكذلك القدرية الذين يقولون : لا تعود الحكمة إليه . بل ما ثَمَّ إلا نفع الخلق ، فما عندهم إلا شكر ، كما ليس عند الجهمية إلا قدرة .

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة : لا يظهر فيها وصف حمد ، كالقادر الذي يفعل مالا ينتفع به ولا ينفع به أحداً ، فهذا لا يحمد .

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم : أنه لا يستحق الحمد . فله عندهم ملك بلا حمد ، مع تقصيرهم في معرفة ملكه .

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام ، إذ كان عندهم يشاء مالا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وتحدث حوادث بلا قدرته .

وعلى مذهب السلف : له الملك وله الحمد تامّين ، وهو محمود على حكمته ، كما هو محمود على قدرته ورحمته .

وقد قال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط : لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[1] فله الوحدانية فى إلهيته ، وله العدل ، وله العزة والحكمة .

وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم . فمن قصر عن معرفة السنة ، فقد نقص الرب بعض حقه .

والجهمى الجبرى لا يثبت عدلا ولا حكمة ، ولا توحيد إلهية . بل توحيد ربوبيته . والمعتزلى أيضاً لا يثبت فى الحقيقة توحيد إلهية ولا عدلا فى الحسنات والسيئات ، ولا عزة ولا حكمة فى الحقيقة ، وإن قال : إنه يثبت الحكمة بما معناها يعود إلى غيره . وتلك لا يصلح أن تكون حكمة من فعل لا لأمر يرجع إليه ، بل لغيره هو عند العقلاء قاطبة بها : ليس بحكيم ، بل سفيه .

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة ، فقد ثبت : أنه رأس الشكر فهو أول الشكر .

والحمد ـ وإن كان على نعمته وعلى حكمته ـ فالشكر بالأعمال : هو على نعمته وهو على عبادة له لإلهيته التى تتضمن حكمته . فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر .

ولهذا عظم القرآن أمر الشكر . ولم يعظم أمر الحمد مجرداً ، إذا كان نوعاً من الشكر .

---

(١) آل عمران ١٨ .

وشرع الحمد ـ الذى هو الشكر المقول ـ أمام كل خطاب مع التوحيد. ففى الفاتحة: الشكر والتوحيد، والخطب الشرعية لابد فيها من الشكر والتوحيد، والباقيات الصالحات نوعان. فسبحان الله وبحمده: فيها الشكر والتنزيه والتعظيم. ولا إله إلا الله والله أكبر: فيها التوحيد والتكبير. وقد قال تعالى: ﴿فادعوه مخلصين له الدين. الحمد لله رب العالمين﴾ (١).

* * *

[قضاء السيئات]

٤٩ ـــ وهل الحمد على كل ما يحمد به الممدوح. وإن لم يكن باختياره، أو لا يكون الحمد على الأمور الاختيارية. كما قيل فى الذم؟ فيه نظر ليس هذا موضعه.

وفى الصحيح: « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: ربنا ولك الحمد. ملء السماء، وملء الأرض، وملء ماشئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد. أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لامانع لما أعطيت. ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لفظ الحديث « أحق » أفعل التفضيل.

وقد غلط فيه طائفة من المصنفين فقالوا: « حق ما قال العبد ».

وهذا ليس لفظ الرسول. وليس هو بقول سديد. فإن العبد يقول الحق والباطل. بل الحق ما يقوله الرب. كما قال تعالى: ﴿فالحق والحق أقول﴾ (٢).

ولكن لفظة « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف. أى الحمد أحق ما قال العبد. أو هذا ـ وهو الحمد ـ أحق ما قال العبد.

---

(١) غافر ٦٥. (٢) ص ٨٤.

ففيه بيان : أن الحمد لله أحق ماقاله العباد . ولهذا أوجب قوله فى كل صلاة، وأن تفتتح به الفاتحة ،وأوجب قوله فى كل خطبة ، وفى كل أمر ذى بال .

والحمد ضد الذم . والحمد يكون على محاسن المحمود ، مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه ، مع البغض له .

فإذا قيل : إنه سبحانه يفعل الخير والحسنات ، وهو حكيم رحيم بعباده ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها : أوجب ذلك أن يحبه عباده ويحمدوه .

وأما إذا قيل: بل يخلق ما هو شر محض ،ولانفع فيه ولا رحمة ، ولا حكمة لأحد . وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلا على مثل . لافرق عنده بين أن يرحم أو يعذب . وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للإحسان إلى الخلق،بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده : وهو ــ مع هذا ــ يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ، ويفعل ما يفعل لا لحكمة ــ ونحو ذلك ، مما يقوله الجهمية ــ لم يكن هذا موجباً لأن يحبه العباد ويحمدوه . بل هو موجب للعكس .

ولهذا فإن كثيراً من هؤلاء ينطقون بالذم والشتم والطعن ، ويذكرون ذلك نظماً ونثراً .

وكثيراً من شيوخ هؤلاء وعلمائهم من يذكر فى كلامه ما يقتضى هذا . ومن لم يقله لسانه فقلبه ممتلىء به ، لكن يرى أن ليس فى ذكره منفعة ، أو يخاف من عموم المسلمين .

وفى شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا .

وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله . ويجعلون الرب ظالماً لهم .

وهو خلاف ماوصف الله به نفسه ، فى قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن

كانوا هم الظالمين ﴾[١] وقوله : ﴿ وما ظلمناهم ولـكن ظلموا أنفسهم ﴾[٢].
وقوله : ﴿ وماربك بظلام للعبيد ﴾[٣].

كيف يكون ظالماً ؟ وهم فيما بينهم لو أساء بعضهم إلى بعض، أوقصر فى حقه لـكان يؤاخذه ، ويعاقبه وينتقم منه . ويكون ذلك عدلا إذا لم يعتد عليه .

ولوقال : إن الذى فعلته قدر علىّ فلا ذنب لى فيه : لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء .

فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدرة ، فـكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر ؟

وهو سبحانه الحـكم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة : وإن تك حسنة يضاعفها . ويؤت من لدنه أجراً عظيما . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فقوله : « أحق ماقال العبد » يقتضى : أن حمد الله أحق ماقاله العبد ، فله الحمد على كل حال . لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان ، الذى يستحق الحمد عليه ، سبحانه وتعالى وإن كان العباد لا يعلمون .

* * *

[حكمة خلق الإنسان]

٥٠ — وهو سبحانه خلق الإنسان ، وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لابد فيها من الشر لحـكمة بالغة ، ورحمة سابغة .

فإذا قيل : فلم يخلقها على غير هذا الوجه ؟

قيل : كان يقول ذلك خلقاً غير الإنسان وكانت الحـكمة التى خلقها بخلق

---

(١) الزخرف ٧٦ (٢) هود ١٠١
(٣) فصلت ٤٦ .

الإنسان لاتحصل . وهذا سؤال الملائـكة حيث قالوا : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟﴾[1] مالم تعلمه الملائـكة ، فـكيف يعلمه آحاد الناس .

وفى نفس الإنسان خلقت كما قال الله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسّه الشر جزوعاً. وإذا مسّه الخير منوعاً﴾[2]، وقال تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾[3].

فقد خلقت خلقة تستلزم وجود ماوجد منها لحـكمة عظيمة ، ورحمة عميمة. فـكان ذلك خيراً ورحمة ، وإن كان فيه شر إضافى ، كما تقدم . فهذا من جهة الغاية مع أنه لايضاف الشر إلى الله .

وأما الوجه الثانى من جهة السبب : فإن هذا الشر إنما وجد لعدم العلم والإرادة التى تصلح النفس ، فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته ، وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك. وهذا كله من فضل الله وإحسانه لـكن النفس المذنبة لما لم يحصل لها من يكملها ، بل حصل لها من زين لها السيئات ـ من شياطين الإنس والجن ـ مالت إلى ذلك ، وفعلت السيئات . فـكان فعلها للسيئات مركباً من عدم ماينفع وهو الأفضل . ووجود هؤلاء الذين خيروها ، والعدم لا يضاف إلى الله .

وهؤلاء : القول فيهم كالقول فيها : خلقهم لحـكمة .

فلما كان عدم ماتعمل به وتصلح : هو أحد السببين . وكان الشر المحض الذى لاخير فيه : هو العدم المحض ، والعدم لايضاف إلى الله . فإنه ليس شيئاً : والله خالق كل شىء . كانت السيئات منها باعتبار ذاتها فى نفسها مستلزمة للحركة الإرادية التى تحصل منها عدم مع مايصلحها تلك السيئات .

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) المعارج ١٩ ـ ٢١ (٣) الأنبياء ٣٧

والعبد إذا اعترف وأقر بأن الله خالق أفعاله كلها فهو على وجهين :

إن اعترف به إقراراً بخلق الله كل شيء ، بقدرته ونفوذ مشيئته ، وإقراراً بكلماته التامات التى لايجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، واعترافاً بفقره وحاجته إلى الله وأنه لم يهده فهو ضال ، وإن لم يتب عليه فهو مُصِرٌّ ، وإن لم يغفر له فهو هالك : خضع لعزته وحكمته . فهذا حال المؤمنين الذين يرحمهم الله ويهديهم ويوفقهم لطاعته .

وإن قال ذلك احتجاجاً على الرب ، ودفعاً للأمر والنهى عنه ، وإقامة لعذر نفسه ، فهذا ذنب أعظم من الأول، وهذا من أتباع الشيطان . ولا يزيده ذلك إلا شراً . وقد ذكرنا أن الرب — سبحانه — محمود لنفسه ولإحسانه إلى خلقه ؛ ولذلك هو يستحق المحبة لنفسه ولإحسانه إلى عباده . ويستحق أن يرضى العبد بقضائه ؛ لأنه حكمه عدل ؛ لايفعل إلا خيراً وعدلا . ولأنه لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : « إن أصابته سراء شكر ؛ فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » .

فالمؤمن يرضى بقضائه لما يستحقه الرب لنفسه — من الحمد والثناء — ولأنه محسن إلى المؤمن .

[قضاء السيئات]

٥١ — وما تسأله طائفة من الناس ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب ، فكيف يكون ذلك خيراً ؟ .

وعنه جوابان :

أحدهما : أن أعمال العباد لم تدخل فى الحديث ؛ إنما دخل فيه مايصيب

الإنسان من النعم والمصائب ، كما فى قوله : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[١]. ولهذا قال : « إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ؛ فكان خيراً له » فجعل القضاء : ما يصيبه من سراء وضراء . هذا ظاهر لفظ الحديث ، فلا إشكال عليه .

الوجه الثانى : أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت فى هـذا ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من سرّته حسنته ، وساءته سيئته فهو مؤمن » .

فإذا قضى له بأن يحسن ، فهذا مما يسره ، فيشكر الله عليه .

وإذا قضى عليه بسيئة : فهى إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها ، إذا لم يتب منها ، فإن تاب أبدلت بحسنة ، فيشكر الله عليها ، وإن لم يتب ابتلى بمصائب تكفرها ، فصبر عليها ، فيكون ذلك خيرا له : والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقضى الله للمؤمن » والمؤمن هو الذى لا يصر على ذنب . بل يتوب منه ؛ فيكون حسنة كما قد جاء فى عدة آثار : إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله . ولا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة .

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ، ودعاء الله واستغفاره إياه ، وشهوده بفقره وحاجته إليه ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو .

فيحصل للمؤمن — بسبب الذنب — من الحسنات مالم يكن يحصل بدون ذلك ، فيكون هذا القضاء خيراً له .

فهو فى ذنوبه بين أمرين : إما أن يتوب ، فيتوب الله عليه ، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله .

---

(١) النساء ٧٩

وإما أن يكفر عنه بمصائب ، تصيبه ضراء فيصبر عليها . فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب ، وبالصبر عليها ترتفع درجاته .

وقد جاء فى بعض الأحاديث يقول الله تعالى: « أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم » أى : محبهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين « وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب » .

[مافى قوله تعالى «من نفسك» من الفوائد]

٥٢ — وفى قوله تعالى « من نفسك » من الفوائد : أن العبد لا يركن إلى نفسه ، ولا يسكن إليها ، فإن الشر لا يجىء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ؛ فإن ذلك من السيئات التى أصابته ، وهى إنما أصابته بذنوبه ؛ فيرجع إلى الذنوب فيستغفر منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء ، وأعظمه وأحكمه :دعاء الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الذنوب هى من لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى فى كل لحظة : وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب .

ليس كما يقوله طائفة من المفسرين : إنه قد هداه . فلماذا يسأل الهدى ؟

وأن المراد بسؤال الهدى : الثبات ، أو مزيد الهداية .

بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه مايفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى مايتولد من تفاصيل الأمور فى كل يوم ، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك .

فإنه لا يكفى مجرد علمه ، إن لم يجعله الله مريدا للعمل بعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً ، والعبد محتاج إلى أن يجعله الله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة .

فإنه لا يكون مهتدياً إلى الصراط المستقيم — صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين — إلا بهذه العلوم والإرادات والقدرة على ذلك .

ويدخل فى ذلك من أنواع الحاجات مالا يمكن إحصاؤه .

ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه .

فليسوا إلى شىء أحوج منهم إلى هذا الدعاء .

وإنما يعرف بعض قدر هذا الدعاء من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الإنس والجن ، والمأمورين بهذا الدعاء . ورأى مافى النفوس من الجهل والظلم الذى يقتضى شقاءها فى الدنيا والآخرة ، فيعلم أن الله — بفضله ورحمته — جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر .

[العبرة فى قصص الأنبياء]

٥٣ — ومما يبين ذلك : أن الله تعالى لم يقص علينا فى القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها ، لما فى الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا .

وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثانى بالأول، وكانا مشتركين فى المقتضى للحكم ، فلولا أن فى نفوس الناس من جنس ما كان فى نفوس المكذبين للرسل — فرعون ومن قبله — لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر

كما قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[(١)] وكما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر أو مجنون ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ، مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ﴾[(٣)] وقال تعالى ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾[(٤)] .

[إنها السنن]

٥٤ — ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضُبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وقال : « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها : شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . قيل : يارسول الله ، فارس الروم ؟ قال : فمن ؟ » وكلا الحديثين في الصحيحين .

ولما كان في غزوة حنين كان للمشركين شجرة — يقال لها : ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، وينوطونها بها ، ويستظلون بها متبركين . فقال بعض الناس : « يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . إنها السنن . لتركبنّ سنن من كان قبلكم » .

وقد بيّن القرآن : أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله .

[أعظم السيئات]

٥٥ — فأعظم السيئات : جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس

---

(١) فصلت ٤٣ .
(٢) الذاريات ٥٢
(٣) البقرة ١١٨ .
(٤) التوبة ٣٠ .

أن تكون شريكة ونداً له ، أو أن تكون إلهاً من دونه . وكلا هذين وقع ، فإن فرعون طلب أن أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى . وقال : ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾[١] و ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾[٢] وقال لموسى : ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾[٣] و ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾[٤] .

وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ، فيريد : أن يعبد ويطاع هو ، ولا يعبد الله ولا يطاع .

وهذا الذى فى فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل .

وفى نفوس سائر الإنس والجن : شعبة من هذا وهذا ، إن لم يمن الله العبد ويهديه ، وإلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون ، بحسب الإمكان .

قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وفيها ما فى نفس فرعون ، غير أن فرعون قدر فأظهر ، وغيره عجز فأضمر .

وذلك : أن الإنسان إذا اعتبر ، وتعرف نفسه والناس ، وسمع أخبارهم : رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته .

[حب الرياسة والعلو]

٥٦ — فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة ، بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ، ويعادى من يخالفه فى هواه ، وإنما معبوده: ما يهواه ويريده قال تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون

---

(١) القصص ٣٨ (٢) النازعات ٢٤ .
(٣) الشعراء ٢٩ . (٤) الزخرف : ٥٤ .

عليه وكيلا ؟ ﴾[١] والناس عنده فى هذا الباب : كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم . يقولون « ياربياعى » أى صديق وعدو . فمن وافق هواهم : كان وليا ، وإن كان كافراً مشركا . ومن لم يوافق هواهم : كان عدواً ، وإن كان من أولياء الله المتقين . وهذه حال فرعون .

والواحد من هؤلاء : يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون : من دعوى الإلهية ، وجحود الصانع .

وهؤلاء ـ وإن كانوا يقرون بالصانع ـ لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم : فقد يعادونه ، كما عادى فرعون موسى .

وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان ، لا يطلب هذا الحد ، بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعاً مسلماً : طلب أن يطاع فى أغراضه، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ، ويكون من أطاعه فى هواه : أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه . وهذه شعبة من حال فرعون ، وسائر المكذبين للرسل .

وإن كان عالماً ـ أو شيخاً ـ أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، حتى لو كانا يقرآن كتاباً واحداً كالقرآن ، أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها ، كالصلوات الخمس ، فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله ، والاقتداء به : أكثر من غيره . وربما أبغض نظيره وأتباعه حسداً وبغياً ، كما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى . قال تعالى : ﴿وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ،

---

(١) الفرقان ٤٣ .

وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾[3] .

[عمل بنى إسرائيل كعمل فرعون]

٥٧ — ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به فرعون . وسلط عليهم من انتقم به منهم ، فقال تعالى عن فرعون : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً . يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾[4] وقال تعالى عنهم : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب : لتفسدنّ فى الأرض مرتين . ولتعلنّ علواً كبيراً ﴾[5] ولهذا قال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ﴾[6] .

والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، ليذكروه ، ويشكروه . ويعبدوه . وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده ، وليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هى العليا ، كما أرسل كل رسول بمثل ذلك . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾[8] .

وقد أمر الله الرسل كلهم بهذا ، وأن لا يتفرقوا فيه . فقال : ﴿ إن هذه

---

(١) البقرة ٩١ .
(٢) البينة ٤ .
(٣) الشورى ١٤ .
(٤) القصص ٤ .
(٥) الإسراء ٤ .
(٦) القصص ٨٣ .
(٧) الأنبياء ٢٥ .
(٨) الزخرف ٤٥ .

أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ؛ إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[٢] .

قال قتادة : أى دينكم دين واحد ، وربكم رب واحد ، والشريعة مختلفة . وكذلك قال الضحاك عن ابن عباس « إن هذه أمتكم أمة واحدة »أى دينكم دين واحد . قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ، وقتادة وعبدالرحمن ابن زيد نحو ذلك . وقال الحسن : بيّن لهم ما يتقون وما يأتون . ثم قال : إن هذه سنتكم سنة واحدة .

وهكذا قال جمهور المفسرين .

[معنى الأمة]

٥٨ — و « الأمة » الملة والطريقة ، كما قال تعالى ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ـ مقتدون ﴾[٣] كما يسمى «الطريق» إماماً . لأن السالك فيه يأتم به ، فكذلك السالك يؤمه ويقصده .

و « الأمة » أيضاً معلم الخير ، الذى يأتم به الناس ، كما أن « الإمام » هو الذى يأتم به الناس ، وإبراهيم عليه السلام جعله الله إماماً ، وأخبر أنه : ﴿ كان أمة ﴾[٤] .

وأمر الله الرسل أن تكون ملتهم ودينهم واحداً ، لا يتفرقون فيه ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا

---

(١) الأنبياء ٩٢ .
(٢) المؤمنون ٥١ ـ ٥٣ .
(٣) الزخرف ٢٢ ، ٢٣
(٤) النحل ١٢٠ .

واحد » وقد قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾[١] ولهذا كان جميع رسل الله وأنبيائه يصدق بعضهم بعضا لا يختلفون ، مع تنوع شرائعهم .

[أتباع الرسل المخلصون]

٥٩ — فمن كان من المطاعين ـ من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك ـ متبعاً للرسل . أمر بما أمروا به ، ودعا إلى ما دعوا إليه ، وأحبَّ من دعا إلى مثل ما دعا إليه ، فإن الله يحب ذلك ؛ فيحب ما يحبه الله تعالى ، وهذا قصده فى نفس الأمر . أن تكون العبادة لله تعالى وحده ، وأن يكون الدين كله لله .

وأما من كان يكره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك : فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، فله نصيب من حال فرعون وأشباهه .

فمن طلب أن يطاع دون الله : فهذا حال فرعون ، ومن طلب أن يطاع مع الله : فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والله سبحانه وتعالى أمر : أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له ، وأن تكون الموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، وأن لا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعان إلا به .

فالمؤمن المتبع للرسل : يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك : أحبه وأعانه ، وسر بوجود مطلوبه .

وإذا أحسن إلى الناس ، فإنما يحسن إليهم : ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسناً ، ولم يجعله مسيئاً ، فيرى أن عمله لله ، وأنه بالله .

وهذا مذكور فى فاتحة الكتاب ، التى ذكرنا : أن جميع الخلق محتاجون إليها أعظم من حاجتهم إلى أى شىء .

---

(١) الشورى ١٣ .

ولهذا فرضت عليهم قراءتها فى كل صلاة دون غيرها من السور ، ولم ينزل فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور ، و لا فى القرآن مثلها ، فإن فيها : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

[المؤمن عمله لله وبالله]

٦٠ — فالمؤمن يرى أن عمله لله : لأنه إياه يعبد ، وأنه بالله لأنه إياه يستعين . فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً ، لأنه إنما عمل له ما عمل لله ، كما قال الأبرار : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾[١] ولا يمنّ عليه بذلك ولا يؤذيه ، فإنه قد علم : أن الله هو المانّ عليه ، إذ استعمله فى الإحسان ، وأن المنة لله عليه ، وعلى ذلك الشخص فعليه هو : أن يشكر الله . إذ يسره لليسرى ، وعلى ذلك : أن يشكر الله ، إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق ، أو علم أو نصر ، أو غير ذلك .

ومن الناس : من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه ، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه وتعظيمه ، أو نفع آخر . وقد يمنّ عليه ، فيقول : أنا فعلت بك كذا . فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه ، ولا عمل لله ، ولا عمل بالله ، فهو المرائى .

وقد أبطل الله صدقة المنان ، وصدقة المرائى . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتا من أنفسهم : كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطلّ . والله بما تعملون بصير ﴾[٢] .

---

(١) الإنسان ٩ .

(٢) البقرة ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

قال قتادة : « تثبيتاً من أنفسهم » احتساباً من أنفسهم ، وقال الشعبي : يقيناً وتصديقاً من أنفسهم ، وكذلك قال الكلبي ، قيل : يخرجون الصدقة طيبة بها أنفسهم . وعلى يقين الثواب ، وتصديق بوعد الله ، يعلمون : أن ما أخرجوه خير لهم مما تركوه .

قلت : إذا كان المعطى محتسباً للأجر عند الله مصدقاً بوعدالله له : طلب من الله ، لا من الذى أعطاه ، فلا يمنّ عليه . كما لو قال رجل لآخر : أعط مماليكك هذا الطعام ، وأنا أعطيك ثمنه ، لم يمنّ على المماليك ، لاسيما إذا كان يعلم أن الله قد أنعم عليه بالإعطاء .

فصل

[الذنوب ابتلاء]

٦١ — الفرق السادس : أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ـ إن كانت خلقاً لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له ، وفطره عليه . فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ، ودلّه على الفطرة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » وقال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

فهو لما لم يفعل ما خلق له ، وما فطر عليه ، وما أمر به ـ من معرفة الله وحده ، وعبادته وحده ـ عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصى .

قال تعالى للشيطان : ﴿ اذهب : فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ـ إلى قوله ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ إنه

(١) الروم ٣٠ .

(٢) الإسراء ٦٣ ـ ٦٥ .

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون﴾[١] وقال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون﴾[٢] .

[الإخلاص شفاء]

٦١ — قد تبين : أن إخلاص الدين لله : يمنع من تسلط الشيطان ،ومن ولاية الشيطان التى توجب العذاب . كما قال تعالى : ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين﴾[٣] .

فإذا أخلص العبد لربه الدين : كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له فى ضد ذلك ، وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه . عوقب على ذلك ، وكان من عقابه : تسلط الشيطان عليه ، حتى يُزَيِّن له فعل السيئات ، وكان إلهامه لفجوره : عقوبة له على كونه لم يتق الله .

وعدم فعله للحسنات : ليس أمراً وجودياً ، حتى يقال : إن الله خلقه ، بل هو أمر عدمى ، لكن يعاقب عليه لكونه : عدم ما خلق له ، وماأمر به ، وهذا يتضمن العقوبة على أمر عدمى ، لكن بفعل السيئات لا بالعقوبات التى يستحقها بعدم إقامة الحجة عليه بالنار ونحوها .

وقد تقدم أن مجرد عدم المأمور : هل يعاقب عليه ؟ فيه قولان .

والأكثرون يقولون : لا يعاقب عليه لأنه عدم محض ، ويقولون : إنما يعاقب على الترك ، وهذا أمر وجودى .

وطائفة ـ منهم : أبو هاشم ـ قالوا : بل يعاقب على هذا العدم . بمعنى أنه يعاقب عليه ، كما يعاقب على فعل الذنوب بالنار ونحوها .

---

(١) النحل ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢

(٣) يوسف ٢٤ .

وما ذكر فى هذا الوجه ؛ هو أمر وسط : وهو أن يعاقبه على هذا العدم بفعل السيئات ، لا بالعقوبة عليها ، ولا يعاقبه عليها حتى يرسل إليه رسوله ، فإذا عصى الرسول : استحق حينئذ العقوبة التامة . وهو أولا إنما عوقب بما يمكن أن ينجو من شره ، بأن يتوب منه ، أو بأن لا تقوم عليه الحجة ، وهو كالصبي الذى لا يشتغل بما ينفعه ، بل بما هو سبب لضرره ، ولكن لا يكتب عليه قلم الإثم حتى يبلغ . فإذا بلغ عوقب .

ثم ما تعوّده من فعل السيئات : قد يكون سبباً لمعصيته بعدالبلوغ ، وهولم يعاقب إلا على ذنبه ، ولكن العقوبة المعروفة : إنما يستحقها بعد قيام الحجة عليه . وأما اشتغاله بالسيئات : فهو عقوبة عدم عمله للحسنات .

[الشر ليس إلى الله]

٦٣ — وعلى هذا : فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه فإنه ـ وإن كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات : نعمة ورحمة، وخلقه للسيئات : له فيه حكمة ورحمة . وهو ـ مع هذا ـ عدل منه . فما ظلم الناس شيئاً ولكن الناس ظلموا أنفسهم .

وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات . فهذا ليس مضافاً إليه . وعملهم للسيئات : خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها ، وأمرهم بها . فكل نعمة منه فضل ؛ وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبّر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله فى خلق الكفر والمعاصى يجعله جزاء لذلك العمل . كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا

---

(١) الأنعام ١٢٥ .

أزاغ الله قلوبهم ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى ، وكذّب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾[٢] .

وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور.

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ماخلقوا له ، ولابد لهم من حركة وإرادة ، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات ، عدلا من الله ، حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له — وهو القلب الذى لا يكون إلا عاملا — فإذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه ـ إذا حقق ـ يقطع مادة كلام القدرية المكذبة ، والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلماً . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم ، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب ، وطبع على قلوبهم عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به ، فما ظلمهم ولكن هم ظلموا أنفسهم .

يقال: ظلمته إذا نقصته حقه . قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أُكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾[٣] .

وكثير من أولئك يسلمون أن الله خلق للعبد من الأعمال ما يكون جزاء له على عمل منه متقدم . ويقولون : إنه خلق طاعة المطيع .

فلاينازعون فى نفس خلق أفعال العباد . لكن يقولون . ماخلق شيئاً من الذنوب ابتداء . بل إنما خلقها جزاء لئلا يكون ظالماً .

---

(١) الصف ٥ (٢) الليل ٨ ـ ١٠ (٣) الكهف ٣٣

[الذنب يحدثه العبد]

٦٤ — فنقول : أول مايفعله العبد من الذنوب : هو أحدثه ، لم يحدثه الله . ثم ما يكون جزاء على ذلك : فالله محدثه ؛ وهم لاينازعون فى مسألة خلق الأفعال إلا من هذه الجهة . وهذا الذى ذكرناه يوافقون عليه . لكن يقولون: أول الذنوب لم يحدثه الله ، بل يحدثه العبد ، لئلا يكون الجزاء عليه ظلماً .

وما ذكرناه : يوجب أن الله خالق كل شىء ، فماحدث شىء إلا بمشيئته وقدرته ، ولكن أول الذنوب الوجودية : هو المخلوق . وذلك عقوبة على عدم فعل العبد لما خلق له ، ولما كان ينبغى له أن يفعله .

وهذا العدم لايجوز إضافته إلى الله ، وليس بشىء حتى يدخل فى قولنا : ﴿ الله خالق كل شىء ﴾ وما أحدثه من الذنوب الوجودية فأولها : عقوبة للعبد على هذا العدم . وسائرها : قد يكون عقوبة للعبد على ماوجد . وقد يكون عقوبة له على استمراره على العدم .

فمادام لايخلص لله العمل: فلايزال مشركاً ولايزال الشيطان مسلطاً عليه.

ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه ــ بأن استعمله ابتداء فيما خلق له ، وهذا لم يستعمله ــ هو تخصيص منه بفضله ورحمته . ولهذا يقول الله : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذوالفضل العظيم ﴾[1]. ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها كما خص بعض الأبدان بقوى لاتوجد فى غيرها ، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية وغير ذلك من حكمته .

وبتحقيق هذا يندفع شبهات هذا الباب . والله أعلم بالصواب .

---

(١) البقرة ١٠٥

فصـــــل

[عقوبة عدم الإيمان]

٦٥ — ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان ، قوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾[1] وهذا من تمام قوله : ﴿ وما يشعركم : أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية . فذكر : أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة ، وهذا عدم الإيمان .

لكن يقال : إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم ، وهم قد تركوا الإيمان وكذبوا الرسول . وهذه أمور وجودية ، لكن الموجب للعذاب : هو عدم الإيمان ، وما ذكر شرط فى التعذيب ، بمنزلة إرسال الرسول ، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح — من أكل وشرب ، وبيع وسفر ، وغير ذلك — وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة ، إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه .

ومن الناس من يقول : ضد الإيمان هو تركه . وهو أمر وجودى ، لا ضد له إلا ذلك .

فصـــــل

[النعم كلها من الله]

٦٦ — الفرق السابع : من الحسنات والسيئات التى تتناول الأعمال والجزاء فى كون هذه تضاف إلى النفس ، وتلك تضاف إلى الله : أن السيئات التى تصيب الإنسان — وهى مصائب الدنيا والآخرة — ليس لها سبب إلا ذنبه الذى هو نفسه ، فانحصرت فى نفسه .

---

(١) الأنعام ١١٠

وأما مايصيبه من الخير والنعم : فإنه لاتنحصر أسبابه ؛ لأن ذلك من فضل الله وإحسانه ، ويحصل بعمله وبغير عمله ، وعمله نفسه من إنعام الله عليه ؛ وهو سبحانه لايجزى بقدر العمل، بل يضاعفه له . ولايقدر العبد على ضبط أسبابها، لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه ، فيرجع فيها إلى الله ، فلايرجو إلا الله ، ولايتوكل إلا عليه ، ويعلم أن النعم كلها من الله ، وأن كل ماخلقه فهو نعمة ، كما تقدم ، فهو يستحق الشكر المطلق العام ، الذى لايستحقه غيره .

ومن الشكر: مايكون جزاء على مايسره على يديه من الخير ، كشكر الوالدين وشكر من أحسن إليك من غيرهما ، فإنه « من لايشكر الناس لا يشكر الله » ، لكن لايبلغ من حق أحد وإنعامه ، أن يشكر بمعصية الله ، أو أن يطاع بمعصية الله ، فإن الله هو المنعم بالنعم العظيمة ، التى لايقدر عليها مخلوق ، ونعمة المخلوق إنما هى منه أيضاً . وقال تعالى : ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾[2] ، وجزاؤه سبحانه على الطاعة والمعصية والكفر لايقدر أحد على مثله .

[لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق]

٦٧ — فلهذا لم يجز أن يطاع مخلوق فى معصية الخالق ، كما قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلاتطعهما ﴾[3] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ﴾[4].

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « على المرء المسلم :

---

(١) النحل ٥٣ (٢) الجاثية ١٣
(٣) العنكبوت ٨ (٤) لقمان ١٥

السمع والطاعة فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية ؛ فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » وقال : « لا طاعة لمخلوق على معصية الخالق » .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله ، وأنه لا يقدر أن يأتى بها إلا الله . فلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، وأنه ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لهـا ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾[1] صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده .

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر ـ الذى لا يستحقه غيره ـ صار علمه بأن الحسنات من الله : يوجب له الصدق فى شكر الله ، والتوكل عليه .

ولو قيل : إنها من نفسه لـكان غلطاً ؛ لأن منها ما ليس لعمله فيه مدخل . وما كان لعمله فيه مدخل ؛ فإن الله هو المنعم به ؛ فإن لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

وعلم أن الشر قد انحصر سببه فى النفس ، فضبط ذلك وعلم من أين يؤتى ، فاستغفر ربه مما فعل وتاب ، واستعان الله واستعاذ به مما لم يعمل بعد ، كما قال من قال من السلف : « لا يرجونَ عبد إلا ربه . ولا يخافَنّ عبد إلا ذنبه » .

وهذا يخالف قول الجهمية ومن اتبعهم ، للذين يقولون : إن الله يعذب بلا ذنب ، ويعذب أطفال الـكفار وغيرهم عذاباً دائماً أبداً بلا ذنب .

فإن هؤلاء يقولون : يخاف الله خوفاً مطلقاً . سواء كان له ذنب أو لم

---

(١) فاطر ٢ .

يكن له ذنب ، ويشبهون خوفه بالخوف من الأسد ، ومن الملك القاهر الذى لا ينضبط فعله ولا سطوته ، بل قد يقهر ويعذب من لا ذنب له من رعيته .

فإذا صدق العبد بقوله تعالى : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ علم بطلان هذا القول ، وأن الله لا يعذبه ويعاقبه إلا بذنوبه ، حتى المصائب التى تصيب العبد كلها بذنوبه .

وقد تقدم قول السلف ـ ابن عباس وغيره ـ أن ما أصابهم يوم أحد من الغم والفشل ؛ إنما كان بذنوبهم ، لم يستثن من ذلك أحد .

وهذا من فوائد تخصيص الخطاب ، لئلا يظن أنه عام مخصوص .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا همّ ولا حزن ولا غمّ ـ حتى الشوكة يُشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه » .

فصـــل

[خبث السيئات]

٦٨ ــ الفرق الثامن : إن السيئة إذا كانت من النفس ، والسيئة خبيثة مذمومة ، وصفها بالخبث فى مثل قوله : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾[١] .

قال جمهور السلف : الكلمات الخبيثة للخبيثين ، ومن كلام بعضهم : الأقوال والأفعال الخبيثة للخبيثين .

وقد قال تعالى ﴿ ضرب الله مثلا : كلمة طيبة ـ ومثل كلمة خبيثة ﴾[٢] .

وقال الله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[٣] والأقوال والأفعال صفات القائل والفاعل .

---

(١) النور ٢٦ (٢) إبراهيم ٢٤ ـ ٢٦ (٣) فاطر ١٠

فإذا كانت النفس متصفة بالسوء والخبيث لم يكن محلها ينفعه إلا ما يناسبها .

فمن أراد : أن يجعل الحيات والعقارب يعاشرون الناس كالسنانير : لم يصلح .

ومن أراد : أن يجعل الذى يكذب شاهداً على الناس : لم يصلح .

وكذلك من أراد : أن يجعل الجاهل معلماً للناس ، مفتياً لهم ، أو يجعل العاجز الجبان مقاتل عن الناس ، أو يجعل الأحمق الذى لا يعرف شيئاً سائساً للناس ، أو للدواب ، فمثل هذا يوجب الفساد فى العالم ، وقد يكون غير ممكن، مثل ما أراد أن يجعل الحجارة تسبحُ على وجه الماء كالسفن ، أو تصعد إلى السماء كالريح ، ونحو ذلك .

فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون فى الجنة الطيبة التى ليس فيها من الخبث شيء ، فإن ذلك موجب للفساد ، أو غير ممكن .

بل إذا كان فى النفس خبث طهرت وهذّبت ، حتى تصلح لسكنى الجنة .

كما فى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمنين إذا نجوا من النار — أى عبروا الصراط — وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا . فإذا هذبوا ونقوا . أذن لهم فى دخول الجنة » .

وهذا مما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخلص المؤمنون من النار . فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أُذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » .

والتهذيب : التخليص ، كما يهذب الذهب : فيخلص من الغش .

فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب ، فكيف يمكن لمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط ؟ .

وأيضاً فإذا كان سببها ثابتاً فالجزاء كذلك ، بخلاف الحسنة ، فإنها من إنعام الحى القيوم الباقى ، الأول الآخر ، فسببها دائم ، فيدوم بدوامه .

وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه : لم يطمع فى السعادة التامة ، مع مافيه من الشر ، بل علم تحقيق قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾[(١)] وقوله ﴿ فمن يعمل مثقالا ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[(٢)] .

وعلم أن الرب عليم حليم ، رحيم عدل ، وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمين الله ملأى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض مافى يمينه ، والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » .

[الثواب والعقاب ، بحكمة وعدل]

٩٦ — وعلم فساد قول الجهمية ، الذين يجعلون الثواب والعقاب بلا حكمة ولاعدل ، ولا وضع للأشياء مواضعها ، فيصفون الرب بما يوجب الظلم والسفه ، وهو سبحانه قد شهد (أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[(٣)] .

ولهذا يقولون : لا ندرى مايفعل بمن فعل السيئات ، بل يجوز عندهم . أن يعفو عن الجميع ، ويجوز عندهم : أن يعذب الجميع ، ويجوز أن يعذب ويغفر بلا موازنة ، بل يعفو عن شر الناس ، ويعذب خير الناس على سيئة صغيرة ، ولا يغفرها له .

---

(١) النساء ١٢٣ (٢) الزلزلة ٧ ، ٨ (٣) آل عمران ١٨

وهم يقولون : السيئة لا تمحى ، لا بتوبة ، ولا حسنات ماحية ، ولا غير ذلك . وقد لا يفرقون بين الصغائر والكبائر .

قالوا : لأن هذا كله إنما يعلم بالسمع والخبر . خبر الله ورسوله .

قالوا : وليس فى الكتاب والسنة مايبين ما يفعل الله بمن كسب السيئات، إلا الكفر ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[1] بأن المراد بالكبائر : قد يكون هو الكفر وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾[2] .

وقد ذكر هذه الأمور القاضى أبو بكر الباقلانى وغيره ، ممن يقول بمثل هذه الأقوال ممن سلك مسلك جهم بن صفوان فى القدر وفى الوعيد ، وهؤلاء قصدوا مناقشة المعتزلة فى القدر والوعيد .

فأولئك لما قالوا : إن الله لم يخلق أعمال العباد ، وأنه يشاء ما لا يكون ، ويكون مالا يشاء ، وسلكوا مسلك نفاة القدر فى هذا ،وقالوا فى الوعيد بنحو قول الخوارج . قالوا : إن من دخل النار لا يخرج منها ، لا بشفاعة ولا غيرها بل يكون عذابه مؤبدا ، فصاحب الكبيرة ، أو من رجحت سيئاته ـ عندهم ـ لا يرحمه الله أبداً ، بل يخلده فى النار ، فخالفوا السنة المتواترة وإجماع الصحابة فيما قالوه فى القدر ، وناقضهم جَهْم فى هذا وهذا .

وسلك هؤلاء مسلك جَهْم ، مع انتسابهم إلى السنة والحديث واتباع السلف ، وكذلك سلكوا فى الإيمان والوعيد مسلك المرجئة الغلاة ، كجهم وأتباعه .

[جهم وبدعته]

٧٠ ــ وجَهْم اشتهر عنه نوعان من البدعة : نوع فى الأسماء والصفات ،

---

(١) النساء ٣١ . (٢) النساء ٤٨ .

فعلا فى نفى الأسماء والصفات ، ووافقه على ذلك ملاحدة الباطنية والفلاسفة ونحوهم ، ووافقه المعتزلة فى نفى الصفات دون الأسماء .

والكلابية ـ ومن وافقهم من السالمية ، ومن سلك مسلكهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية ـ وافقوه على نفى الصفات الاختيارية ، دون نفى أهل الصفات .

والكرامية ونحوهم : وافقوه على أصل ذلك ، وهو امتناع دوام مالا يتناهى ، وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وفعالا لما يشاء إذا شاء ، لامتناع حوادث لا أول لها ، وهو ـ عن هذا الأصل الذى هو نفى وجودما لا يتناهى فى المستقبل ـ قال بفناء الجنة والنار .

وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا ، لكن قال : بتنهى الحركات .

فالمعتزلة فى الصفات مخانيث الجهمية .

وأما الكلابية : فيثبتون الصفات فى الجملة ، وكذلك الأشعريون ، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصارى — الجهمية الإناث ، وهم مخانيث المعتزلة .

ومن الناس من يقول : المعتزلة مخانيث الفلاسفة .

وقد ذكر الأشعرى وغيره هذا ، لأن قائله لم يعلم أن جهماً سبق هؤلاء إلى هذا الأصل ، أو لأنهم مخانيثهم من بعض الوجوه ، وإلا فإن مخالفتهم للفلاسفة كبيرة جداً .

والشهرستانى يذكر عن شيوخهم : أنهم أخذوا ما أخذوا عن الفلاسفة ، لأن الشهرستانى إنما يرى مناظرة أصحاب الأشعرية فى الصفات ونحوها مع المعتزلة ، بخلاف أئمة السنة والحديث فإن مناظرتهم إنما كانت مع الجهمية ، وهم المشهورون عند السلف والأئمة بنفى الصفات .

وأهل النفى للصفات والتعطيل لها : هم عند السلف ، يقال لهم : الجهمية ، وبهذا تميزوا عند السلف عن سائر الطوائف .

[نشأة المعتزلة والجهمية]

٧١ — وأما المعتزلة : فامتازوا بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، لما أحدث ذلك عمرو بن عبيد ، وكان هو وأصحابه يجلسون معتزلين للجماعة ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة . وكان ذلك بعد موت الحسن البصرى فى أوائل المائة الثانية .

وبعدهم حدثت الجهمية .

وكان القدر : قد حدث أهله قبل ذلك فى خلافة عبد الله بن الزبير ، بعد موت معاوية ، ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ وغيرهما.

وابن عباس مات قبل ابن الزبير ، وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين .

فبقى الناس يخوضون فى القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره : كان بالشام والعراق بالبصرة ، وأقله : كان بالحجاز .

ثم لما حدثت المعتزلة ـ بعد موت الحسن ، وتكلم فى المنزلة بين المنزلتين ، وقالوا بإنفاذ الوعيد ، وخلود أهل التوحيد فى النار ، وأن النار لا يخرج منها من دخلها . وهذا تغليظ على أهل الذنوب ـ ضموا إلى ذلك القدر ، فإن به يتم التغليظ على أهل الذنوب ، ولم يكن الناس إذ ذاك قد أحدثوا شيئاً من نفى الصفات .

[ظهور الجعد بن درهم]

٧٢ — إلى أن ظهر الجعد بن درهم ، وهو أولهم ، فضحى به خالد

ابن عبد الله القسرى ، وقال : «أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم ، أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً » ثم نزل فذبحه وهذا كان بالعراق.

ثم ظهر جهم بن صفوان من ناحية المشرق من ترمذ ، ومنها ظهر رأى جهم .

ولهذا كان علماء السنة والحديث بالمشرق ، أكثر كلاماً فى رد مذهب جهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، مثل إبراهيم بن طهمان وخارجة بن مصعب ، ومثل عبد الله بن المبارك . وأمثالهم ــ وقد تكلم فى ذمهم ــ وابن الماجشون وغيرهما ، وكذلك الأوزاعى وحماد بن زيد وغيرهم .

[محنة الإمام أحمد بن حنبل]

٧٣ — وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة ، فإنهم فى إمارة المأمون قوّوا وكثروا . فإنه كان قد أقام بخراسان مدة ، واجتمع بهم ، ثم كتب بالمحنة من طرسوس[١] سنة ثمان عشرة ومائتين ، وفيها مات ، وردوا أحمد بن حنبل إلى الحبس ببغداد ، إلى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم فى الكلام ، فلما ردَّ عليهم ما احتجوا به عليه ، وبيَّن أن لا حجة لهم فى شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم ، وامتحانهم إياهم ، جهل وظلم . وأراد المعتصم إطلاقه ، فأشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، حتى لا تنكسر حرمة الخلافة مرة بعد مرة . فلما ضربوه قامت الشناعة عليهم فى العامة ، وخافوا الفتنة ، فأطلقوه .

[القائلون بخلق القرآن]

٧٤ — وكان أحمد بن أبى دؤاد قد جمع له نفاة الصفات القائلين بخلق

---

(١) وكان خرج إليها لغزو الروم .

القرآن من جميع الطوائف ، فجمع له مثل أبى عيسى محمد بن عيسى بن غوث ، ومن أكابر النجارية أصحاب حسين النجار .

وأئمة السنة ـ كابن المبارك ، وأحمد بن إسحاق ، والبخارى وغيرهم ـ يسمون جميع هؤلاء : جهمية .

وصار كثير من المتأخرين ـ من أصحاب أحمد وغيرهم ـ يظنون أن خصومه كانوا المعتزلة .

ويظنون أن بشر بن غياث المريسى ـ وإن كان قد مات قبل محنة أحمد ، وابن أبى دؤاد ونحوهما ـ كانوا معتزلة . وليس كذلك .

بل المعتزلة كانوا نوعاً من جملة من يقول القرآن مخلوق ، وكانت الجهمية أتباع جهم ، والنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، والمعتزلة هؤلاء يقولون : القرآن مخلوق : وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة . أحدهما : نفى الصفات ، والثانى : الغلو فى القدر والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب ، وجعل العباد لا فعل لهم ولا قدرة .

وهذا مما غلت المعتزلة فى خلافه فيهما .

[رأى الأشعرى]

٧٥ — وأما الأشعرى . فوافقه على أصل قوله ، ولكن قد ينازعه منازعات لفظية .

وجهم لم يثبت شيئاً من الصفات ـ لا الإرادة ولا غيرها ـ فهو إذا قال : إن الله يحب الطاعات ، ويبغض المعاصى ، فمعنى ذلك عنده : الثواب والعقاب.

وأما الأشعرى : فهو يثبت الصفات ـ كالإرادة ـ فاحتاج حينئذ أن يتكلم

فى الإرادة : هل هى المحبة أم لا ؟ وأن المعاصى : هل يحبها الله أم لا ؟ فقال : إن المعاصى يحبها الله ويرضاها ، كما يريدها .

وذكر أبو المعالى الجوينى : أنه أول من قال ذلك ، وأن أهل السنة قبله كانوا يقولون : إن الله لا يحب المعاصى .

وذكر الأشعرى فى الموجز : أنه قد قال ذلك قبله طائفة سماهم ، أشك فى بعضهم .

[رأى الهروى]

٧٦ ــ وشاع هذا القول فى كثير من الصوفية ومشايخ المعرفة والحقيقة ، فصاروا يوافقون جهماً فى مسائل الأفعال والقدر ، وإن كانوا مكفِّرين له فى مسائل الصفات ، كأبى إسماعيل الأنصارى الهروى ، صاحب كتاب « ذم الكلام » فإنه من المبالغين فى ذم الجهمية لنفيهم الصفات . وله كتاب « تكفير الجهمية » ويبالغ فى ذم الأشعرية ، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة والحديث ، وربما كان يلعنهم .

وقد قال له بعض الناس ــ بحضرة نظام الملك ــ أتلعن الأشعرية ؟ فقال : ألعن من يقول : ليس فى السموات إله ، ولا فى المصحف قرآن ، ولا فى القبر نبى ، وقام من عنده مغضباً .

ومع هذا فهو فى مسألة إرادة الكائنات ، وخلق الأفعال ؛ أبلغ من الأشعرية . لا يثبت سبباً ، ولا حكمة ، بل يقول : إن مشاهدة العارف الحكم لا تبقى له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة .

والحكم عنده : هى المشيئة . لأن العارف المحقق ــ عنده ــ هو من يصل إلى مقام الفناء ، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق ، وجميع الكائنات مرادة له ، وهذا هو الحكم عنده . و « الحسنة » و « السيئة » يفترقان فى حظ العبد ،

لكونه ينعم بهذه ، ويعذب بهذه ، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس ، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق .

[رأى الجنيد]

٧٧ ـ وهذه المسألة وقعت فى زمن الجنيد ، كما ذكر ذلك فى غير موضع . وبيّن لهم الجنيد الفرق الثانى ، وهو أنهم ـ مع مشاهدة المشيئة العامة . لابد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه . وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه ، وبيّن ذلك لهم الجنيد ، كما قال فى التوحيد : هو إفراد الحدوث عن القدم .

فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة ، كان قد اهتدى ونجا وسعد ، ومن لم يسلك فى القدر مسلكه ، بل سوّى بين الجميع : لزمه أن لا يفرق بين الحسنات والسيئات ، وبين الأنبياء والفساق ، فلا يقول : إن الله يحب هؤلاء ، وهذه الأعمال ، ولا يبغض هؤلاء ، وهذه الأعمال . بل جميع الحوادث هو يحبها كما يريد ، كما قاله الأشعرى . وإنما الفرق : أن هؤلاء ينعمون ، وهؤلاء يعذبون .

والأشعرى لما أثبت الفرق بين هذا وهذا ـ بالنسبة إلى المخلوق ـ كان أعقل منهم فإن هؤلاء يدعون أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا فرق بين هذا وهذا ، وهم غلطوا فى حق العبد وحق الرب .

[مذهب الصوفية فى الفناء وما يلزم عليه]

٧٨ ــ أما فى حق العبد ، فيلزمهم أن تستوى عنده جميع الحوادث ، وهذا محال قطعاً ، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء .

أما الفناء عن جميعها : فممتنع ، فإنه لابد أن يفرق كل حى بين ما يؤلمه

وبين ما يلذه ، فيفرق بين الخبز والتراب ، والماء والشراب .

فهؤلاء : عزلوا الفرق الشرعى الإيمانى والرحمانى الذى به فرق الله بين أوليائه وأعدائه ، وظنوا أنهم مع الجمع القدرى .

وعلى هذا : فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته ، بل لابد للعبد من أن يفرق ، فإن لم يفرق بالفرق الشرعى ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه ، وبين ما يرضاه له وما يسخطه ـ وإلا فرق بالفرق الطبيعى بهواه وشيطانه ، فيحب ما تهواه نفسه ، وما يأمره به شيطانه .

ومن هنا : وقع منهم خلق كثير فى المعاصى وآخرون فى الفسوق ، وآخرون فى الكفر ، حتى جوّزوا عبادة الأصنام .

[وحدة الوجود]

٧٩ ــ ثم كثير منهم من ينتقل إلى وحدة الوجود ، وهم الذين خالفوا الجنيد ، وأئمة الدين فى التوحيد ، فلم يفرقوا بين القديم له المحدث .

وهؤلاء صرحوا بعبادة كل موجود ، كما بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع ، وهو قول أهل الوحدة ؛ كابن عربى الحاتمى ، وابن سبعين ، والقونوى ، والتلمسانى ، والبلبانى ، وابن الفارض ، وأمثالهم .

والمقصود هنا : الكلام على من نفى الحكم والعدل والأسباب فى القدر بين أهل الكلام والمتصوفة الذين أوقعوا جهماً فى هذا الأصل ، وهو بدعته الثانية التى اشتهرت عنه بخلاف الإرجاء ؛ فإنه منسوب إلى طوائف غيره .

[حكمة الله وعدله]

٨٠ ــ فهؤلاء يقولون : إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه ،

ويمكن فعله من غير مراعاة حكمة ، ولا رحمة ولا عدل . ويقولون : إن مشيئته هى محبته .

ولهذا تجد من اتبعهم غير معظم للأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، بل هو منحل من الأمر الشرعى كله ، أو بعضه ، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه ، فإنهم أرادوا : أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه ، وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ، ولا حكمة يسوقه إليها ، بل غايته أنه يسوق المقادير إلى المواقيت .

لم يبق عندهم فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور ؛ بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعرى ـ فى أنه فى نفس الأمر : لا حسن ولا سىء وإنما الحسن والقبيح : مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً ، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد ، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ .

فتارة يقولون فى امتثال الأمر والنهى إنه من مقام التلبيس أو ما يشبه هذا . كما يوجد فى كلام أبى إسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين .

وتارة يقولون : يفعل هذا لأهل المارستان ، أى العامة ، كما يقوله الشيخ المغربى ، إلى أنواع ، ليس هذا موضع بسطها .

[فى كلام الشاذلى تعطيل الأمر]

٨١ — ومن يسلك مسلكهم : غايته ـ إذا عظم الأمر والنهى ـ أن يقول ، كما نقل عن الشاذلى : يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، والفرق على لسانك موجوداً .

ولهذا يوجد فى كلامه وكلام غيره : أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهى مثل أن يدعو : أن يعطيه الله إذا عصاه أعظم مما يعطيه إذا أطاعه . ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده : أن يجعل الذين اجترحوا السيئات ، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بل أفضل منهم ، ويدعون بأدعية فيها اعتداء ، كما يوجد فى جواب الشاذلى . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

[الكرامات عند الصوفية]

٨٢ — وآخرون ـ من عوام هؤلاء يجوزون : أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً ، بل كافراً ، ويقولون هذه موهبة وعطية ، يعطيها الله من يشاء ، ما هى متعلقة لا بصلاة ولا بصيام . ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء . وتكون كراماتهم من الأحوال الشيطانية التى يكون مثلها للسحرة والكهان . قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم . نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلّمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾[1] .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضُبٍّ لدخلتموه » .

والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن : عدل كثير منهم ـ ممن أضله

---

(١) البقرة ١٠١ ، ١٠٢ .

الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام - إلى نبذ كتاب الله وراء ظهره ، واتبع ما تتلوه الشياطين فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه ، ولا يوالى من أمر القرآن بموالاته ، ولا يعادى من أمر القرآن بمعاداته ؛ بل يعظم من رآه يأتى ببعض خوارقهم ، التى يأتى بمثلها السحرة والكهان. بإعانة الشياطين ، وهى تحصل بما تتلوه الشياطين .

ثم منهم من يعرف : أن هذا من الشياطين ، ولكن يعظم ذلك لهواه ، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة ، وهؤلاء كفار ، كالذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؟ يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾[١] .

وهؤلاء ضاهئوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا - الآية ﴾[٢] .

ومنهم : من لا يعرف أن هذا من الشياطين .

[الشعوذة]

٨٣ — وقد يقع فى مثل هذا طوائف من أهل الكلام ، والعلم ، وأهل العبادة ، والتصوف ، حتى جوّزوا عبادة الكواكب ، والأصنام ، لما رأوه

---

(١) النساء ٥١ ، ٥٢ .

(٢) البقرة ١٠١ ، ١٠٢ .

فيها من الأحوال العجيبة ، التى تعينهم عليها الشياطين ، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم ، من الظلم والفواحش ، فلا يبالون بشركهم بالله ، ولا كفرهم به وبكتابه ، إذا نالوا ذلك ، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس ، وتعظيمهم لهم ، لرياسة ينالونها . أو مال ينالونه ، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك : عملوه ، ودعوا إليه ، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له فى الباطن ، لأجل مصلحة الجمهور ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية .

وقد دخل فى رأى هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء . وهذا مما ضاهئوا به فارس والروم ، وغيرهم ، فإن فارس كانت تعظم الأنوار ، وتسجد للشمس وللنار ، والروم كانوا ــ قبل النصرانية ــ مشركين ، يعبدون الكواكب والأصنام ، فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم : شر من الذين أشبهوا اليهود والنصارى ، فإن أولئك ضاهئوا أهل الكتب فيما بدّل أو نسخ . وهؤلاء ضاهئوا من لا كتاب له من المجوس والمشركين ، فارس والروم ، ومن دخل فى ذلك من الهند واليونان .

ومذهب الملاحدة الباطنية : مأخوذ من قول المجوس بالأصلين ، ومن قول فلاسفة اليونان بالعقول والنفوس .

وأصل قول المجوس : يرجع إلى أن تكون الظلمة المضاهية للنور : هو إبليس ، وقول الفلاسفة بالنفس .

[أصل الشر]

٨٤ ــ فأصل الشر : عبادة النفس والشيطان ، وجعلهما شريكين للرب ،

وأن يعدلا به . ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر الشيطان . وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه أن يقول ـ إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه ـ : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة . أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وهذا من تمام تحقيق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله . وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[١] وقوله : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[٢].

وقد ظهرت دعوى النفس الإلهية فى فرعون . ونحوه ممن ادعى أنه إله مع الله أو من دونه ، وظهرت فيمن ادعى إلهية بشر مع الله كالمسيح وغيره .

[أصل الشرك]

٨٥ — وأصل الشرك فى بنى آدم : كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين؛ فإنهم لما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم عبدوهم .

فهذا أول شرك كان فى بنى آدم . وكان فى قوم نوح ، فإنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم . ولا تذرنّ وداً ولا سُواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ﴾[٣] ، وهذه أسماء قوم صالحين فى قوم

(١) الحجر ٤٢ (٢) ص ٨٥ .

(٣) نوح ٢٣ ، ٢٤ .

نوح ، فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ، ثم ذهبت هذه الأصنام ، لما أغرق الله أهل الأرض ، ثم صارت إلى العرب ، كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره ، إن لم تكن أعيانها ، وإلا فهى نظائرها .

وأما الشرك بالشيطان : فهذا كثير .

فمتى لم يؤمن الخلق بأنه « لا إله إلا الله » بمعنى : أنه المعبود المستحق للعبادة دون ماسواه . وأنه يحب أن يعبد ، وأنه أمر أن يعبد ، وأنه لا يعبد إلا بما أحبه مما شرع ، من واجب ومستحب ـ فلابد أن يقعوا فى الشرك وغيره .

فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء ، لا يحب شيئاً دون شيء : فلا فرق عنده بين من يعبده وحده ، لا يشرك به شيئاً ، وبين من يعبد معه آلهة أخرى ، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ، ليس معها حكمة ، ولا رحمة ، ولا عدل . ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات : طمعت النفس فى نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله .

[من صفات « الولى » عند الصوفية]

٨٦ — ثم إذا جوّزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح . ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى ، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق . وجوزوا الخوارق مطلقاً ، وحكوا فى ذلك مكاشفات ، وقالوا أقوالا منكرة .

فقال بعضهم : إن الولى يعطى قول « كن » وقال بعضهم : إنه لا يمتنع على الولى فعل ممكن ، كما لا يمتنع على الله تعالى فعل محال .

وهذا قاله ابن عربى والذين اتبعوه قالوا : إن الممتنع لذاته مقدور عليه ، ليس عندهم مايقال : إنه غير مقدور عليه للولى ، حتى ولا الجمع بين الضدين

ولاغير ذلك ، وزاد ابن عربي : أن الولى لايعزب عن قدرته شيء من الممكنات : والذى لايعزب عن قدرته شيء من الممكنات : هو الله وحده .

فهذا تصريح منهم : بأن الولى مثل الله ، إن لم يكن هو الله .

وصرح بعضهم : بأنه يعلم كل مايعلمه الله ، ويقدر على كل مايقدر الله عليه .

وادعوا أن هذا كان للنبى ، ثم انتقل إلى الحسن بن على ، ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد . حتى انتهى ذلك إلى أبى الحسن الشاذلى ، ثم إلى ابنه .

خاطبنى بذلك : من هو من أكابر أصحابهم .

وحدثنى الثقة من أعيانهم ، أنهم يقولون : إن محمداً هو الله .

وحدثنى بعض الشيوخ ، الذين لهم سلوك وخبرة : أنه كان هو وابن هود فى مكة ، فدخلا الكعبة ، فقال له ابن هود ـ وأشار إلى وسط الكعبة ـ هذا مهبط النور الأول . وقال له : لوقال لك صاحب هذا البيت : أريد أن أجعلك إلهاً ، ماذا كنت تقول له ؟ قال : فقف شعرى من هذا الكلام وانخنست ـ أو كما قال .

[دعوى سهل التسترى فى الولاية]

٨٧ — من الناس من يحكى عن سهل بن عبد الله : أنه لما دخل الزنج البصرة . قيل له فى ذلك . فقال : هاه ، إن ببلدكم هذا من سألوا الله أن يزيل الجبال عن أماكنها لأزالها . ولوسألوه : أن لايقيم القيامة لما أقامها ، لكنهم يعلمون مواضع رضاه . فلا يسألونه إلا مايحب .

وهذه الحكاية : إما كذب على سهل ـ وهو الذى نختار أن يكون حقاً ـ أو تكون غلطاً منه ، فلاحول ولاقوة إلا بالله ، وذلك : أن ما أخبر الله

أن يكون فلابد أن يكون ، ولوسأله أهل السموات والأرض أن لا يكون لم يجبهم ، مثل إقامة القيامة ، وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين، وغير ذلك ، بل كل ماعلم الله أنه يكون فلايقبل الله دعاء أحد فى أن لا يكون .

لكن الدعاء سبب يقضى الله به ماعلم الله أنه سيكون بهذا السبب ، كما يقضى بسائر الأسباب ما علم : أنه سيكون بها .

وقد سأل الله تعالى — من هو أفضل من كل من فى البصرة بكثير — ماهو دون هذا فلم يجابوا لما سبق الحكم بخلاف ذلك ، كما سأله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغفر لأبيه ، وكما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه . فقيل له : ﴿يا نوح ، إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح . فلا تسألنى ما ليس لك به علم﴾(١) .

وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : قيل له فى شأن عمه أبى طالب ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى﴾(٢) وقيل له فى المنافقين: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم﴾(٣) وقد قال تعالى عموماً : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾(٤) وقال : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾(٥) . فمن هذا الذى لوسأل الله مايشاؤه هو أعطاه إياه ؟!

وسيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة أخبر : أنه « يسجد تحت العرش ، ويحمد ربه ، ويثنى عليه ، فيقال له : أى محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعط ، وأشفع تشفع ، قال : فيحدّ لى حداً ، فأدخلهم الجنة » وقد قال تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين﴾(٦) .

---

(١) هود ٤٦
(٢) التوبة ١١٣ .
(٣) المنافقون ٦
(٤) البقرة ٢٥٥
(٥) سبأ ٢٣ .
(٦) الأعراف ٥٥

[الاعتداء فى الدعاء]

٨٨ — وأى اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه : أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله ، وأن يفعل ما قد أخبر : أنه لا يفعله . وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه : « وإذا سألك عبادى عنى ؟ فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان »[1] وقال : ﴿ وقال ربكم : آدعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[2] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن داع يدعو الله بدعوة ، ليس فيها ظلم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته . وإما أن يدخر له من الخير مثلها . وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » .

فالدعوة التى ليس فيها اعتداء ، يحصل بها المطلوب بها أو مثله ، وهذا غاية الإجابة : فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعاً أو مفسداً للداعى أو لغيره ، والداعى جاهل ، لا يعلم ما فيه المفسدة عليه ، والرب قريب مجيب ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والكريم الرحيم : إذا سئل شيئاً بعينه ، وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه : أعطاه نظيره ، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب ماليس له ، فإنه يعطيه من ماله نظيره . ولله المثل الأعلى .

كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ـ لما طلبت منه طائفة من عمه أن يوليهم ولاية لا تصلح لهم ـ فأعطاهم من الخمس ما أغناهم عن ذلك وزوجهم ، كما فعل بالفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

وقد روى فى الحديث « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وهذا حق .

---

(١) البقرة ١٨٦ . (٢) غافر ٦٠ .

فصــــل

[لا تطلب الحسنات إلا من الله]

٨٩ — ولما كان الأمر كما أخبر الله به فى قوله : «وماأصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » أوجب هذا : أن لا يطلب العبد الحسنات ـ والحسنات تدخل فيها كل نعمة ـ إلا من الله ، وأن يعلم أنها من الله وحده ، فيستحق الله عليها الشكر الذى لا يستحقه غيره ، ويعلم أنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[1] .

فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده . ثم قال : ﴿ إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[1] وهذا إخبار عن حالهم ، والجؤار : يتضمن رفع الصوت .

والإنسان إنما يجأر إذا مسه الضر ، وأما فى حال النعمة : فهو ساكن ، إما شاكراً وإما كفوراً . ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون. ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾[2] .

وهذا المعنى قد ذكره الله فى غير موضع ، يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه ، وإسباغ النعماء عليه . فيضيف ـ بعد ذلك ـ الإنعام إلى غيره ، ويعبد غيره تعالى ، ويجعل المشكور غيره على النعم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسّ الناس ضرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه . ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم . فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفية لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين؟ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب. ثم أنتم تشركون ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسان ضر دعا ربه منيباً

---

(١) النحل ٥٣ (٢) النحل ٥٣ ، ٥٤ (٣) الروم ٣٣ ، ٣٤
(٤) الأنعام ٦٣ ، ٦٤

إليه . ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله . قل تمتع بكفرك قليلا . إنك من أصحاب النار ﴾(١) .

وقوله : « نسى ما كان يدعو إليه » أى نسى الضر الذى كان يدعو الله لدفعه إليه ، كما قال فى سورة الأنعام : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون ﴾(٢) .

[المشركون عندما تنزل بهم الضراء]

٩٠ — فذم الله سبحانه حزبين . حزباً لا يدعونه فى الضراء ولا يتوبون إليه ، وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه ، فإذا كشف الضرعنهم. أعرضوا عنه ، وأشركوا به ما اتخذوه من الأنداد من دونه .

فهذا الحزب نوعان — كالمعطلة والمشركة — حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله ولم يتضرعوا إليه ، ولم يتوبوا إليه ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾(٤) . وقال تعالى : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾(٥) ، وقال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾(٦) ، وحزب يتضرعون إليه فى حال الضراء ويتوبون إليه . فإذا كشفها عنهم : أعرضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مسّ

(١) الزمر ٨ .
(٢) الأنعام ٤٠ ، ٤١ .
(٣) الأنعام ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) المؤمنون ٧٦ .
(٥) التوبة ١٢٦ .
(٦) السجدة ٢١

الإنسان الضر دعانا لجنبه ،أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ ، كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه . كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾[١] ، وقال تعالى ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضلّ من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً ﴾[٣] ، وقال فى المشركين ماتقدم : ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون : ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ .

[أهل الصبر والشكر]

٩١ — والممدوح : هو القسم الثالث ، وهم الذين يدعونه ، ويتوبون إليه ويثبتون على عبادته والتوبة إليه فى حال السراء . فيعبدونه ويطيعونه فى السراء والضراء . وهم من أهل الصبر والشكر ، كما ذكر وذلك عن أنبيائه عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً : فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً . ثم أناب . وقال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب﴾[٥] ، وقال تعالى ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوّروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود . ففزع منهم . قالوا : لاتخف . خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة. ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزّنى فى الخطاب ، قال : لقد ظلمك

---

(١) يونس ١٢ . (٢) فصلت ٥١ . (٣) الإسراء ٦٧ .
(٤) الأنبياء ٨٧ ، ٨٨ . (٥) ص ٣٤ ، ٣٥ .

بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقليل ما هم ـ وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه . وخرّ راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[1] وقال تعالى عن آدم وحواء : ﴿ فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[2] وقال : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[3] .

[تفسير آية « وكأين من نبي قتل »]

٩٢ — وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم ﴿ وكأين من نبي قتل[4] معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم ، إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين ﴾[5] .

وقوله « قتل » أي النبي قتل . هذا أصح القولين .

وقوله « معه ربيون كثير » جملة في موضع الخبر ، صفة للنبي ـ صفة بعد صفة ـ أي كم من نبي معه ربيون كثير قتل ، ولم يقتلوا معه ، فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه . والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة أولئك الربيون ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا

---

(١) ص ٢١ ـ ٢٥ (٢) الأعراف ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) البقرة ٣٧ (٤) قراءة حفص « قاتل » .
(٥) آل عمران ١٤٦ ـ ١٤٨ .

« والربيون » الجموع الكثيرة ، وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذى يناسب سبب النزول ، وهو ما أصابهم يوم أُحد، لما قيل:« إن محمداً قد قتل » وقد قال قبل ذلك « وما محمدإلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل : انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » وهى التى تلاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » .

[ما يحدث عند موت النبي]

٩٣ — فإنه عند قتل النبي أو موته تحصل فتنة عظيمة للناس ـ المؤمنين والكافرين ـ وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته وما يلقيه الشيطان فى قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ، وما بقى يقوم دينه ، وإنه لو كان نبياً لما قتل وغلب . ونحو ذلك . فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبى قتل ؟

فإن بنى إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء ، والنبى معه ربيون كثير أتباع له ، وقد يكون قتله فى غير حرب ولا قتال ، بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . ولكن استغفروا لذنوبهم التى بها تحصل المصائب ـ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ـ وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون﴾[1] ، وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين ،

---

(١) الحجرات ١٥ .

سألوا ربهم مايفعل لهم فى أنفسهم من التثبيت ، وما يعطيهم من عنده من النصر ؛ فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله ، وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم ؛ قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين ﴾[٢] وهذا مبسوط فى موضع آخر .

المقصود هنا : أنه لما كانت الحسنة من إحسانه تعالى ، والمصائب من نفس الإنسان ـ وإن كانت بقضاء الله وقدره ـ وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه ، وأن يستغفره من ذنوبه ، وأن لايتوكل إلا عليه وحده ؛ فلا يأتى بالحسنات إلا هو ؛ فأوجب ذلك للعبد : توحيده ، والتوكل عليه وحده . والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

[أدعية الرسول (ص) جامعة لكل أمور التوحيد]

٩٤ — وهذه الأمور كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمعها فى الصلاة ، كما ثبت عنه فى الصحيح : « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع ، يقول : ربنا ولك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض، وملء مابينهما ، وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ؛ أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد » فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى . وبيان أن حمده أحق ماقاله العبد . ثم يقول بعد ذلك : « اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد » .

وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية . خلقاً ، وقدراً ، وبداية ،

---

(١) الأنفال ١٠ (٢) آل عمران ١٤٨

وهداية . هو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية ـ شرعاً وأمراً ، ونهياً ـ وهو أن العباد ، وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة ، وبختاً ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة « فلا ينفع ذا الجد منك الجد » أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤالك وحسابك حظه وعظمته وغناه .

ولهذا قال : « لا ينفعه منك » ولم يقل : « لا ينفعه عندك » فإنه لو قيل ذلك : أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضره . فيقول صاحب الجد : إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالى ، كالذين أوتوا النبوة والملك ، لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء ؛ فقد يظن ذو الجد ـ الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده ـ أنه كذلك ؛ فقال « ولا ينفع ذا الجد منك » ضمن « ينفع » معنى « ينجي ويخلص » فبين أن جده لا ينجيه من العذاب ؛ بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله . ولا ينفعه جده منك ، فلا ينجيه ولا يخلصه .

[معنى « لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت »]

٩٥ ـ فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، وتحقيق قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [١] وقوله ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [٢] وقوله : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ [٣] .

فقوله : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » توحيد الربوبية الذى يقتضى : أنه سبحانه : هو الذى يسأل ويدعى ، ويتوكل عليه .

وهو سبب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه ، كما يحتج به فى القرآن على المشركين .

---

(١) هود ١٢٣ . (٢) هود ٨٨ . (٣) المزمل ٨ ، ٩ .

فإن المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد - توحيد الربوبية - ومع هذا يشركون بالله. فيجعلون له أنداداً، يحبونهم كحب الله. ويقولون: إنهم شفعاؤنا عنده، وإنهم يتقربون بهم إليه. فيتخذونهم شفعاء وقرباناً، كما قال تعالى: ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم. ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾[1] وقال تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة؟ بل ضلوا عنهم، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾[3].

وهذا التوحيد: هو عبادة الله وحده لا شريك له. وأن لا نعبده إلا بما أحبه وما رضيه. وهو ما أمر به وشرعه على ألسن رسله - صلوات الله عليهم - فهو متضمن لطاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل ما سواهما.

وهو يتضمن: أن يحب الله حباً لا يماثله حب ولا يساويه فيه غيره، بل يقتضي: أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه.

فإذا كان الرسول - لأجل أنه رسول الله - يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه، فكيف بربه سبحانه وتعالى؟

وفي صحيح البخاري أن عمر قال: « يارسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من كل شيء، إلا من نفسي. فقال: لا ياعمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فوالذي بعثك بالحق، إنك لأحب إليَّ من نفسي، قال: الآن يا عمر ».

---

(١) يونس ١٨.
(٢) الزمر ٣.
(٣) الأحقاف ٢٧، ٢٨.

وقد قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها : أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

فإن لم يكن الله ورسوله ، والجهاد في سبيله : أحب إلى العبد من الأهل والمال - على اختلاف أنواعه - فإنه داخل تحت هذا الوعيد .

[توحيد الإلهية]

٩٦ — فهذا التوحيد - توحيد الإلهية - يتضمن فعل المأمور وترك المحظور .

ومن ذلك : الصبر على المقدور ، كما أن الأول يتضمن الإقرار بأنه لا خالق ولا رازق ، ولا معطي ولا مانع ، إلا الله وحده . فيقتضي : أن لا يسأل العبد غيره ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يستعين إلا به . كما قال تعالى في النوعين : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقال ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (٣) .

وهذا التوحيد : هو الفارق بين الموحدين والمشركين . وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

[توحيد الربوبية]

٩٧ — أما توحيد الربوبية : فقد أقرّ به المشركون ، وكانوا يعبدون مع

---

(١) الأحزاب ٦ . (٢) التوبة ٢٤ . (٣) هود ١٢٣ .

الله غيره ، يحبونهم كما يحبونه : فـكان ذلك التوحيد ـ الذى هو توحيد الربوبية ـ حجة عليهم ، فإذا كان الله هو رب كل شيء ومليـكه ، ولا خالق ولا رازق إلا هو . فلماذا يعبدون غيره معه ، وليس له عليهم خلق ولا رزق ، ولا بيده لهم منع ولا عطاء ، بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟ !

فإن قالوا « ليشفع » فقد قال الله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾[1] . فلا يشفع من له شفاعة ـ من الملائـكة والنبيين ـ إلا بإذنه ، وأما قبورهم وما نصب عليهم من قباب وأنصاب ، أو تماثيلهم ـ التى مثلت على صورهم ، مجسدة أو مرموقة ـ فجعل الاستشفاع بها استشفاعاً بهم : فهذا باطل عقلا وشرعاً . فإنها لا شفاعة لها بحال ، ولا لسائر الأصنام التى عملت للـكواكب والجن والصالحين ، وغيرهم .

[حقيقة الشفاعة]

٩٨ — وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى : فما بقى الشفعاء شركاء ، كشفاعة المخلوق عند المخلوق ، فإن المخلوق يشفع عنده نظيره ـ أو من هو أعلى منه ، أو دونه ـ بدون إذن المشفوع إليه . ويقبل المشفوع إليه ، ولابد شفاعته : إما لرغبته إليه ، أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه ، وإما لرهبته منه ، وإما لمحبته إياه ، وإما للمعارضة بينهما والمعاونة ، وإما لغير ذلك من الأسباب .

وتـكون شفاعة الشفيع : هى التى حركت إرادة للشفوع إليه وجعلته

---

(١) البقرة ٢٥٥ .

مريداً للشفاعة ، بعد أن لم يكن مريداً لها ، كأمر الآمر الذى يؤثر فى الأمور ، فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريداً ليفعله .

وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق : فإنه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله .

فالشفيع : كما أنه شافع للطالب شفاعته فى الطلب ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه : فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب . فقد شفع الطالب والمطلوب .

والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد . فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده ، فلا شريك له بوجه ، ولهذا ذكر سبحانه نفى ذلك فى آية الكرسى ، التى فيها تقرير التوحيد . فقال : ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾[١] .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، إذا سجد وحمد ربه ، يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فيحد له حداً . فيدخلهم الجنة » فالأمر كله لله . كما قال : ﴿قل : إن الأمر كله لله﴾[٢] وقال لرسوله : ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾[٣] وقال : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[٤] .

فإذا كان لا يشفع عند الله أحداً إلا بإذنه فهو يأذن لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » .

وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفيع . فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة : لم يكن هذا مؤثراً فيه ، كما يؤثر المخلوق فى المخلوق ؛ فإنه سبحانه هو الذى

---

(١) البقرة ٢٥٥ . (٢) آل عمران ١٥٤ .
(٣) آل عمران ١٢٨ . (٤) الأعراف ٥ .

جعل هذا يدعو وهذا يشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ، ثم أثابه عليه ، وهو الذى وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات ، بل هو سبحانه الذى جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شيء وأنه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وهو خالق أفعال العباد ، كما هو خالق سائر المخلوقات . قال يحيى بن سعيد القطان : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

ولكن هذا يناقض قول القدرية ، فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذى يحدث ، ويخلق أفعاله ، بدون مشيئة الله وخلقه : لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له ، فبدعائه جعله مجيباً له ، وبتوبته جعله قابلا للتوبة ، وبشفاعته جعله قابلا للشفاعة .

[معنى « إذن الله »]

٩٩ — وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه . فإن « الإذن » نوعان . إذن بمعنى المشيئة والخلق ، وإذن بمعنى الإباحة والإجازة .

فمن الأول : قوله فى السحر : ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾[1] فإن ذلك بمشيئة الله ، وقدرته ، وإلا فهو لم يبح السحر .

والقدرية تنكر هذا «الإذن» . وحقيقة قولهم : إن السحر يضرّ بدون إذن الله . وكذلك قوله : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾[2]

(١) البقرة ١٠٢ . (٢) آل عمران ١٦٦ .

فإن الذى أصابهم من القتل والجراح ، والتمثيل ، والهزيمة : إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين .

والنوع الثانى : قوله ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه ﴾[1] وقوله : ﴿ ما قطعتم من لينَةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾[2] فإن هذا يتضمن إباحته لذلك ، وإجازته له ، ورفع الجناح والحرج عن فاعله ، مع كونه بمشيئته وقضائه .

فقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه . ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر . فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن .

فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقاً لها ، وقادراً عليها ، ومشيئاً لها ، فعنده : كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته ، وإن كان قد أباح الشفاعة .

وأما الكفر ، والسحر ، وقتال الكفار : فهو عندهم بغير إذنه ، لا هذا الإذن ولا هذا الإذن ، فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين ، وعندهم : أنه لم يشأه ، ولم يخلقه ، بل كان بدون مشيئته وخلقه .

والمشركون المقرُّون بالقدر ، يقولون : إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدرى ، وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازاً .

ومن كان مكذباً بالقدر ـ مثل كثير من النصارى ـ يقولون : إن شفاعة الشفعاء بغير إذن ، لا قدرى ولا شرعى .

والقدرية من المسلمين يقولون : يشفعون بغير إذن قدرى .

---

(١) الأحزاب ٤٥ ، ٤٦ . (٢) الحشر ٥ .

ومن سأل الله بغير إذنه الشرعى : فقد شفع عنده بغير إذن قدرى ولا شرعى .

فالداعى المأذون له فى الدعاء : مؤثر فى الله عندهم ، ولكن بإباحته .

والداعى غير المأذون له : إذا أجاب دعاه ، فقد أثر فيه عندهم ، لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن ، كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره . والله تعالى يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » .

فإن قيل : فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعى ، وإن كان خالقًا لفعله — كشفاعة نوح لابنه ، وشفاعة إبراهيم لأبيه ، وشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى بن سلول ، حين صلى عليه بعد موته وقوله: « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » قد قلتم : إنه يعم النوعين ، فإنه لو أراد الإذن القدرى : لكان كل شفاعة داخلة فى ذلك . كما يدخل فى ذلك كل كفر وسحر . ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه ، وما لا يكون بإذنه . ولو أراد الإذن الشرعى فقط : لزم قول القدرية ، وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعى ؟

[الشفاعة المقبولة]

١٠٠ — قيل : المنفى من الشفاعة بلا إذن : هى الشفاعة التامة ، وهى المقبولة ، كما فى قول المصلى « سمع الله لمن حمده » أى استجاب له : وكما فى قوله تعالى : ﴿هدى للمتقين﴾[1] وقوله : ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[2] وقوله : ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾[3] ونحو ذلك .

فإذا الهدى ، والإنذار ، والتذكير ، والتعليم . لابد فيه من قبول المتعلم . فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود ، وإلا قيل : علمته فلم يتعلم : كما قيل : ﴿وأما ثمود : فهديناهم . فاستحبوا العمى على الهدى﴾[4] فكذلك الشفاعة .

---

(١) البقرة ٢ (٢) النازعات ٤٥ (٣) ق ٤٥ (٤) فصلت ١٧

فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع إليه : وهى الشفاعة التامة . فهذه هى التى لاتكون إلا بإذنه ، وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته : كانت كعدمها، وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها ، كما قال نوح : ﴿رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾[١] وكما نهى الله النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين . وقال له : ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً . ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله . وماتوا وهم فاسقون﴾[٢] وقال له : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم﴾[٣] ولهذا قال على لسان المشركين : ﴿فمالنا من شافعين . ولا صديق حميم﴾[٤].

فالشفاعة المطلوبة : هى شفاعة المطاع الذى تقبل شفاعته ، وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه ، قدراً وشرعاً فلابد أن يأذن فيها ، ولابد أن يجعل العبد شافعاً ، فهو الخالق لفعله ، والمبيح له ، كما فى الداعى ، هو الذى أمره بالدعاء ، وهو الذى يجعل الداعى داعياً ، فالأمر كله لله ، خلقاً وأمراً ، كما قال ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[٥] .

وقد روى فى حديث — ذكره ابن أبى حاتم وغيره — أنه قال : « فمن يثق به ، فليدعه » أى فلم يبق لغيره لاخلق ولا أمر .

[الشفاعة المنفية]

١٠١ — ولما كان المراد بالشفاعة المنفية : هى الشفاعة المطلقة وهى المقصود بالشفاعة وهى المقبولة ، بخلاف المردودة : فإن أحداً لايريدها ، لا الشافع ولا المشفوع له ، ولا المشفوع إليه ولو علم الشافع والمشفوع له ، أنها ترد : لم يفعلوها والشفاعة المقبولة : هى النافعة . بيّن ذلك فى مثل قوله : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده

---

(١) هود ٤٧ (٢) التوبة ٨٤ (٣) المنافقون ٦ .
(٤) الشعراء ١٠٠ ، ١٠١ . (٥) الأعراف ٥٤ .

إلا لمن أذن له ﴾[١] وقوله . ﴿ يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾[٢] فنفى الشفاعة المطلقة ، وبين أن الشفاعة لاتنفع عنده إلا لمن أذن له ، وهو الإذن الشرعى ، بمعنى : أباح له ذلك ، وأجازه . كما قال تعالى: ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾[٣] وقوله : ﴿ لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم ﴾[٤] وقوله : ﴿ ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾[٥] ونحو ذلك.

وقوله « إلا لمن أذن له » هو إذن للمشفوع له ، فلا يأذن فى شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن فى أن يشفعوا لمن أذن لهم فى الشفاعة فيه ، قال تعالى : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾[٦] وفيه قولان .

قيل : إلا شفاعة من أذن له الرحمن .

وقيل : لاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ، فهو الذى تنفعه الشفاعة .

وهذا هو الذى يذكره طائفة من المفسرين ، لايذكرون غيره ، لأنه لم يقل « لاتنفع إلا من أذن له » ولا قال « لاتنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له » بل قال : « لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له » فهى لا تنفع ، ولا ينتفع بها ، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[٧] .

ولا يقال : لاتنفع إلا لشفيع مأذون له ، بل لو أريد هذا ، لقيل : لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له . وإنما قال « لمن أذن له » وهو المشفوع له ، الذى تنفعه الشفاعة .

وقوله « حتى إذا فزع عن قلوبهم » لم يعد إلى « الشفعاء » بل عاد إلى

(١) سبأ ٢٣ (٢) طه ١٠٩ . (٣) الحج ٣٩ (٤) الأحزاب ٥٣
(٥) النور ٥٨ (٦) طه ١٠٨ ، ١٠٩ (٧) سبأ ٢٣ .

المذكورين فى قوله « ومالهم فيهما من شرك . وماله منهم من ظهير » ثم قال « ولاتنفع الشفاعة عنده » ثم بيّن أن هذا منتفٍ « حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق » فلا يعلمون ماذا قال ، حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه ؟

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع .

فهذا الإذن هو الإذن المطلق، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط ، فإنه لايلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له ، إذ قد يأذن له إذناً خاصاً .

وهكذا قال غير واحد من المفسرين . قالوا : وهذا يدل على أن الشفاعة لاتنفع إلا المؤمنين ، وكذلك قال السلف فى هذه الآية .

قال قتادة فى قوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ (١) قال : كان أهل العلم يقولون : إن المقام المحمود الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ (٢) هو شفاعته يوم القيامة . وقوله « إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » إن الله يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم فى بعض .

قال البغوى : « إلا من أذن له الرحمن » أذن الله له أن يشفع له « ورضى له قولا » أى ورضى قوله . قال ابن عباس : يعنى قال « لا إله إلا الله » قال البغوى : فهذا يدل على أنه لايشفع لغير المؤمن .

وقد ذكروا القولين فى قوله تعالى ﴿ولاينفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ وقدم طائفة هناك: أن المستثنى هو الشافع ، دون المشفوع له ، بخلاف ماقدموه هنا .

منهم البغوى فإنه لم يذكر هنا فى الاستثناء إلى المشفوع له . وقال هناك: « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » فى الشفاعة ، قاله تكذيباً لهم ،حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (٣) قال : ويجوز أن يكون المعنى : إلا لمن أذن له أن يشفع له .

---

(١) طه ١٠٩ (٢) الإسراء ٧٩ (٣) يونس ١٨

وكذلك ذكروا القولين فى قوله : ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق ﴾[١] . وسنتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى، ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين ، وأنه منقطع .

ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية . وهو يعم النوعين .

وذلك : أنه سبحانه قال : ﴿ يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ .

« والشفاعة » مصدر شفع شفاعة . والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة ، وإلى محل الفعل تارة . ويماثله الذى يسمى لفظة « المفعول به » تارة ، كما يقال: أعجبنى دق الثوب ودق القصار . وذلك مثل لفظ « العلم » يضاف تارة إلى العلم ، وتارة إلى المعلوم . فالأول كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه ﴾[٢] وقوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾[٣] وقوله : ﴿ أنما أنزل بعلم الله ﴾[٤] ونحو ذلك .

والثانى : كقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[٥] فالساعة هنا معلومة ، لاعالمة . وقوله حين قال فرعون : ﴿ فما بال القرون الأولى ؟ ﴾ قال موسى : ﴿ علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى ﴾[٦] ، ومثل هذا كثير .

فالشفاعة مصدر لابد لها من شافع ومشفوع له .

والشفاعة : تعم شفاعة كل شافع ، وكل شفاعة لمشفوع له .

فإذا قال : ﴿ يومئذ لاتنفع الشفاعة ﴾ نفى النوعين : شفاعة الشفعاء ، والشفاعة للمذنبين . فقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يتناول النوعين :

---

(١) الزخرف ٨٦ — (٢) البقرة ٢٥٥
(٣) النساء ١٦٦ — (٤) هود ١٤
(٥) لقمان ٣٤ — (٦) طه ٥١ ، ٥٢

من أذن له الرحمن ورضى له قولا من الشفعاء . ومن أذن له الرحمن ورضى له قولا من المشفوع له . وهى تنفع المشفوع له ، فتخلصه من العذاب ، وتنفع الشافع ، فتقبل منه ، ويكرم بقبولها ، ويثاب عليه .

والشفاعة يومئذ لاتنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(١) ، فهذا الصنف المأذون لهم ، المرضى قولهم : هم الذين تحصل لهم نفع الشفاعة ، وهذا موافق لسائر الآيات .

فإنه تارة يشترط فى الشفاعة إذنه . كقوله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ؟ .

وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق . كقوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ ، ثم قال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ .

وهنا اشترط الأمرين : أن يأذن له الرحمن ، وأن يقول صوابا . والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول ، كما تقول : لاينفع الزرع إلا فى وقته . فهو يتناول زرع الحارث ، وزرع الأرض ، لكن هنا قال : « إلا من أذن له الرحمن » ولاستثناء مفرغ . فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا . وإنما قال : « لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » فإذا لم يكن فى الكلام حذف ، كان المعنى : لاتنفع الشفاعة إلا هذا النوع ، فإنهم تنفعهم الشفاعة ، ويكون المعنى : أنها تنفع الشافع والمشفوع له .

وإن جعل فيه حذف ـ تقديره : لاتنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن ـ كان المصدر مضافاً إلى النوعين ، كل واحد بحسبه ، يضاف إلى بعضهم لكونه شافعاً ، وإلى بعضهم لكونه مشفوعاً له ، ويكون هذا كقوله :

---

(١) النبأ ٣٨ .

﴿ ولـكن البر من آمن بالله ﴾[(١)] أى من يؤمن . و ﴿ مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق ﴾[(٢)] أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناعق ، أومثل الذين كفروا كمثل منعوق به ، أى الذى ينعق به ، والمعنى فى ذلك كله ظاهر معلوم .

فلهذا كان من أفصح الـكلام : إيجازه دون الإطناب فيه .

وقوله : ﴿ يومئذ لاتنفع الشفاعة ﴾ إذا كان من هذا الباب ، لم يحتج : أن الشافع تنفعه الشفاعة ، وإن لم يكرمه ، كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة .

وفى الآية الأخرى « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » من هؤلاء وهؤلاء .

لـكن قد يقال: التقدير : لاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيـكون الإذن للطائفتين ، والنفع للمشفوع له ، كأحد الوجهين ، أو ولاتنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء ، فكما أن الإذن للطائفتين ، فالنفع أيضاً للطائفتين . فالشافع ينتفع بالشفاعة ، وقديكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء » .

ولهذا كان من أعظم مايـكرم الله به عبده محمداً صلى الله عليه وسـلم : هو الشفاعة التى يختص بها ، وهى المقام المحمود الذى يحمده به الأولون والآخرون .

وعلى هذا لاتحتاج الآية إلى حذف ، بل يـكون معناه : يومئذ لاتنفع الشفاعة لاشافعاً ولا مشفوعاً إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ولذلك جاء فى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يابنى عبد مناف ، لا أملك لـكم من الله من شىء . ياصفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البقرة ١٧٧ (٢) البقرة ١٧١

لا أملك لك من الله شيء . ياعباس عم رسول الله ، لا أملك لك من الله من شيء » .

وفى الصحيح أيضاً : « لا ألفين أحدكم يأتى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق . فيقول : أغثنى ، أغثنى ، فأقول : قد أبلغتك ، لا أملك لك من الله من شيء » .

فيعلم من هذا : أن قوله: «ولا يملكون من دونه الشفاعة » و« لا يملكون منه خطاباً » على مقتضاه . وأن قوله فى الآية : « لا يملكون منه » كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا أملك لكم من الله من شيء » وهو كقول إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ (١).

وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض ومابينهما الرحمن ، لا يملكون منه خطاباً : يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ (٢) فإن هذا مثل قوله : «يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » ففى الموضعين : اشترط إذنه ، فهناك ذكر « القول الصواب » وهنا ذكر « أن يرضى قوله » ومن قال الصواب رضى الله قوله ، فإن الله إنما يرضى بالصواب .

[الشفـــاعة لله]

١٠٢ — وقد ذكروا فى تلك الآية قولين :

أحدهما: أنه الشفاعة أيضاً ، كما قال ابن السائب: لا يملكون شفاعة إلا بإذنه .

والثانى : لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه . قال مقاتل : كذلك قال مجاهد « لا يملكون منه خطاباً » قال : كلاماً . هذا من تفسيره الثابت عنه وهو من أعلم — أو أعلم — التابعين بالتفسير .

---

(١) الممتحنة ٤ (٢) النبأ ٣٧ ، ٣٨

قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد ، فحسبك به . وقال : عرضت المصحف على ابن عباس : أقفه عند كل آية وأسأله عنها . وعلية اعتمد الشافعى وأحمد والبخارى فى صحيحه .

وهذا يتناول « الشفاعة » أيضاً .

وفى قوله « لا يملكون منه خطاباً » لم يذكر استثناء . فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً . إذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق ، كما قد ذكرناه فى قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » أن هذا عام مطلق . فإن أحداً ـ ممن يدعى من دونه ـ لا يملك الشفاعة بحال ، ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم . وكذلك قوله : « لا يملكون منه خطابا » هذا قول السلف وجمهور المفسرين .

وقال بعضهم : هؤلاء هم الكفار . لا يملكون مخاطبة الله فى ذلك اليوم . قال ابن عطية : قوله : « لا يملكون » : الضمير للكفار . أى لا يملكون ـ من إفضاله وإكماله ـ أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها . وهذا مبتدع . وهو خطأ محض .

والصحيح : قول الجمهور والسلف : أن هذا عام ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن . فلا تسمع إلا همساً ﴾ (١) وفى حديث التجلى الذى فى الصحيح ـ لما ذكر مرورهم على الصراط ـ قال صلى الله عليه وسلم : « ولا يتكلم أحد إلا الرسل . ودعوى الرسل . اللهم سلم سلم » فهذا فى وقت المرور على الصراط . وهو بعد الحساب والميزان . فكيف بما قبل ذلك ؟

وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل ، وأولى العزم . وكل يقول : « إن

---

(١) طه ١٠٨ .

ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله . وإنى فعلت كذا وكذا . نفسى ، نفسى ، نفسى » فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم ؟

وأيضاً فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة ، وبعد أن ذكر الكافرين فقال : ﴿إن المتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا ، وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذّاباً . جزاءً من ربك عطاءً حساباً . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ﴾(١). ثم قال: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال : صواباً ﴾ فقال أخبر : أن « الروح والملائكة » يقومون صفاً ، لا يتكلمون . وهذا هو تحقيق قوله « لا يملكون منه خطابا » والعرب تقول « ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئاً » (٢) . أى لا أقدر من أمره على شيء . وغاية مايقدر عليه الإنسان من أمر غيره : خطابه ولو بالسؤال .

فهم فى ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً ، ولا الخطاب . فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه . ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . قال تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرنّ لك . وما أملك لك من الله من شيء ﴾(٢) فقد أخبر الخليل : أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء . فكيف غيره ؟ .

وقال مجاهد أيضاً « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » قال : حقاً الدنيا وعملا به . رواه ـ والذى قبله ـ عبد بن حميد . وروى عن عكرمة : « وقال صواباً » قال : الصواب قول : لا إله إلا الله .

---

(١) النبأ ٣١ ـ ٣٧ .
(٢) الممتحنة ٤ .

فعلى قول مجاهد : يكون المستثنى: من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح .

وقوله فى سورة طه : ﴿ لاتنفع الشفاعة إلامن أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ ، فإذا جعلت هذه مثل تلك : فتكون الشفاعة هى الشفاعة المطلقة . وهى الشفاعة فى الحسنات ودخول الجنة ، كما فى الصحيحين : « أن الناس يهتمون يوم القيامة . فيقولون : لو استشفعنا على ربنا ، حتى يرحمنا من مقامنا هذا ؟ » فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم .

وفى حديث الشفاعة « أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » فهذه شفاعة أهل الجنة . ولهذا قيل : إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويشفع غيره فى العصاة .

فقوله : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا » يدخل فيه الشفاعة فى أهل الموقف عموماً ، وفى أهل الجنة ، وفى المستحقين للعذاب . وهو سبحانه فى هذه وتلك : لم يذكر العمل . إنما قال : « وقال صواباً » وقال : « ورضى له قولا » لكن قد دل الدليل على أن « القول الصواب المرضى » لا يكون صاحبه محموداً إلا مع العمل الصالح ؛ لكن نفس القول مرضى . فقد قال الله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾[1] .

وذكر البغوى وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهما فى قوله : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » قولين . أحدهما : أن المستثنى هو الشافع : ومحل « من » الرفع . والثانى : هو المشفوع له .

قال أبو الفرج : فى معنى الآية قولان : أحدهما : أنه أراد بـ « الذين

---

(١) فاطر ١٠

يدعون من دونه » آلهتهم . ثم استثنى عيسى وعزيراً والملائكة . فقال: « إلا من شهد بالحق » وهوشهادة أن لا إله إلا الله « وهم يعلمون » بقلوبهم ماشهدوا به بألسنتهم . قال : وهذا مذهب الأكثرين ، منهم قتادة .

والثاني : أن المراد بـ « بالذين يدعون » عيسى وعزيراً والملائكة ، الذين عبدهم المشركون ، لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد « إلا من شهد بالحق » وهي كلمة الإخلاص « وهم يعلمون » أن الله خلق عيسى وعزيرا والملائكة . وهذا مذهب قوم ، منهم مجاهد .

وقال البغوي : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق » هم عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم عبدوا من دون الله . ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون « من » في محل رفع . وقيل « من » في محل خفض ، وأراد بالذين يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة ، يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال : والأول أصح .

قلت : قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة ، منهم ابن أبي حاتم . روى بإسناده المعروف عن مجاهد — على شرط الصحيح — عن مجاهد قوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » عيسى وعزيراً والملائكة ، يقول : لا يشفع عيسى وعزير والملائكة « إلا من شهد بالحق » يعلم الحق . هذا لفظه . جعل « شفع » متعدياً بنفسه وكذلك لفظ .. .. ..[(١)] .

وعلى هذا فيكون منصوباً ، لا يكون مخفوضا ، كما قاله البغوي . فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم . ويكون على هذا يقال : شفعته ، وشفعت له ، كما يقال: نصحته ، ونصحت له . « شفع » أي صار شفيعاً للطالب. أي لا يشفعون طالباً ولا يعينون طالباً « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » أن الله ربهم .

---

(١) بياض بالأصل قدر أربع كلمات .

وروى بإسناده عن قتادة : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الملائكة وعيسى وعزير ؛ أى أنهم قد عبـــدوا من دون الله ، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة .

قلت : كلا القولين معناه صحيح . ولكن التحقيق فى تفسير الآية : أن الاستثناء منقطع . ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقاً : لا يستثنى من ذلك أحد عند الله . فإنه لم يقل : ولا يشفع أحد ، ولا قال : لا يشفع لأحد ، بل قال : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » وكل من دُعِيَ من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة .

والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله .

وسيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم لم يعبد كما عبد المسيح ، وهو - مع هذا - له شفاعة ، ليست لغيره ، فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعى من دون الله دون من لم يدع .

فمن جعل الاستثناء متصلا ، فإن معنى كلامه : أن من دعى من دون الله لا يملك الشفاعة ، إلا أن يشهد بالحق ، وهو يعلم ، أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم ، ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله ، لم تذكر شفاعتهم لأحد. وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه ، وسبب نزول الآية يبطله أيضاً .

[معنى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة »]

١٠٣ — وأيضاً فقوله : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » يتناول كل معبود من دونه . ويدخل فى ذلك الأصنام ، فإنهم كانوا يقولون: هم يشفعون لنا . قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم -

ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؟ قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ ﴾ (١) .

فإذا قيل : إنه استثنى الملائكة والأنبياء ، كان فى هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم ، وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة .

فإنه إذا كان المعنى : أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء . كان فى هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم ، إذا كانوا صالحين، والقرآن كله يبطل هذا المعنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ؟ بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون ﴾ (٣) فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب ، فعلم : أنه لابد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه ، وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق .

وأيضاً فإن فى القرآن : إذا نفى الشفاعة من دونه : نفاها مطلقاً ، فإن قوله « من دونه » إما أن يكون متصلا بقوله « يملكون » أو بقوله « يدعون » أو بهما . فالتقدير : لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه . أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا ، وهذا أظهر ، لأنه قال « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فأخر « الشفاعة » وقدّم « من دونه » .

ومثل هذا كثير فى القرآن « يدعون من دون الله» و« يعبدون من دون

---

(١) يونس ١٨ (٢) النجم ٢٦ (٣) الأنبياء ٢٦ ــ ٢٨

الله » كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾[١] وقوله : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾[٢] .

بخلاف ما إذا قيل: لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه . فإن هذا لا نظير له فى القرآن ، واللفظ المستعمل فى هذا أن يقال : لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه ، أو لمن ارتضى ، ونحو ذلك ، لا يقال فى هذا المعنى « من دونه » فإن الشفاعة هى من عنده ، فكيف تكون من دونه ؟ لكن قد تكون بإذنه ، وقد تكون بغير إذنه .

وأيضاً ، فإذا قيل « الذين يدعون » مطلقا . دخل فيه الرب تعالى : فإنهم كانوا يدعون الله ، ويدعون معه غيره ، ولهذا قال : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾[٣]

والتقدير الثالث : لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه ، وهذا أجود من الذى قبله ، ولكن يَرِدُ عليه ما يرد على الأول .

[من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟]

١٠٤ — ومما يضعفهما : أن « الشفاعة » لم تذكر بعدها صلة لها ، بل قال « لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » فنفى ملكهم الشفاعة مطلقاً . وهذا هو الصواب ، وأن كل من دعى من دون الله : لا يملك الشفاعة ، فإن المالك للشىء : هو الذى يتصرف فيه بمشيئته وقدرته ، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال . ولا يقال فى هذا « إلا بإذنه » إنما يقال ذلك فى الفعل ، فيقال : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ .

---

(١) يونس ١٨ . (٢) يونس ١٠٦ . (٣) الفرقان ٦٨ .

وأما فى الملك : فلا يمكن أن يكون غيره مالـكا لها ؛ فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالـكا لها ، بل هذا ممتنع ، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً ، هذا كما قال : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملـكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير﴾(1) فنفى الملك مطلقاً ، ثم قال : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه . لم يثبت ، أن مخلوقاً يملك الشفاعة ، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد . لا شريك له فى الملك ، قال تعالى : ﴿تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليـكون للعالمين نذيراً ، الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدّره تقديراً﴾(2) .

ولهذا — لما نفى الشفعاء من دونه — نفاهم نفياً مطلقاً بغير استثناء . وإنما يقع الاستثناء : إذ لم يقيدهم بأنهم من دونه . كما قال تعالى ، ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع﴾(3) وكما قال تعالى ﴿وذكّر به أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت . ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع﴾(4) وكما قال تعالى ﴿مالـكم من دونه من ولى ولا شفيع﴾(5) فلما قال « من دونه » نفى الشفاعة مطلقاً . وإذ ذكر « بإذنه » لم يقل « من دونه » كقوله ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟﴾ وقوله ، ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾(6) .

[القرآن : متشابه ومثانى]

١٠٥ — فمن تدبر القرآن ، تبين له أنه كما قال تعالى ﴿الله نزّل أحسن

---

(1) سبأ ٢٢ . (2) الفرقان ١ ، ٢ . (3) الأنعام ٥١ .
(4) الأنعام ٧٠ . (5) السجدة ٤ . (6) يونس ٣ .

الحديث كتاباً متشابهاً ، مثانى ﴾[١] يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً . ليس بمختلف ولا بمتناقض ﴿ولو كان من عند غير الله : لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾[٢] .

وهو « مثانى » يثنى الله فيه الأقسام ، ويستوفيها .

والحقائق : إما متماثلة ، وهو « المتشابه » وإما مماثلة . وهى : الأصناف والأقسام والأنواع . وهى « المثانى » .

و « التثنية » يراد بها : جنس التعديد ، من غير اقتصار على اثنين فقط . كما فى قوله تعالى : ﴿ارجع البصر كرتين ﴾[٣] يراد به : مطلق العدد كما تقول : قلت له مرة بعد مرة . تريد جنس العدد . وتقول : هو يقول كذا ، ويقول كذا : وإن كان قد قال مرات ، كقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه : « جعل يقول بين السجدتين : رب اغفر لى . رب اغفر لى » لم يرد : أن هذا قاله مرتين فقط ، كما يظنه بعض الناس الغالطين . بل يريد : أنه جعل يثنى هذا القول ، ويعدده ، ويكرره ، كما كان يثنى لفظ التسبيح .

وقد قال حذيفة رضى الله عنه فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم : « إنه ركع نحواً من قيامه ، يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم » وذكر : « أنه سجد نحواً من قيامه ، ويقول فى سجوده : رب اغفر لى . رب اغفر لى » .

وقد صرح فى الحديث الصحيح : « أنه أطال الركوع والسجود بقدر البقرة والنساء وآل عمران » فإنه قام بهذه السور كلها . وذكر « أنه كان

---

(١) الزمر ٢٣ . (٢) النساء ٨٢ . (٣) الملك ٤ .

يقول : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى العظيم . سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى » .

فعلم أنه أراد بتثنية اللفظ : جنس التعداد والتكرار ، والاقتصار على مرتين . فإن « الاثنين » أول العدد الكثير . فذكر أول الأعداد ، يعنى أنه عدد هذا اللفظ لم يقتصر على مرة واحدة . فالتثنية التعديد ، والتعديد يكون للأقسام المختلفة .

وليس فى القرآن تكرار محض ، بل لابد من فوائد فى كل خطاب .

ف « المتشابه » فى النظائر المتماثلة . و « المثانى » فى الأنواع ، وتكون التثنية فى المتشابه ، أى هذا المعنى قد ثنى فى القرآن لفوائد أخر .

ف « المثانى » تَعُمُّ هذا وهذا . وفاتحة الكتاب : هى « السبع المثانى » لتضمنها هذا وهذا . وبسط هذا له موضع آخر .

[الشفاعة لأهل : لا إله إلا الله]

١٠٦ — والمقصود هنا : أن قوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » قد تم الكلام هنا . فلا يملك أحد من المعبودين من دون الله الشفاعة ألبتة : ثم استثنى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » فهذا استثناء منقطع . والمنقطع يكون بالمعنى المشترك بين المذكورين . فلما نفى ملكهم الشفاعة ، وبقيت الشفاعة بلا مالك لها .

كأنه قد قيل : فإذا لم يملكوها ، هل يشفعون فى أحد؟ فقال : نعم، « من شهد بالحق وهم يعلمون » .

وهذا يتناول الشافع والمشفوع له . فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . فالملائكة والأنبياء والصالحون ـ وإن كانوا لايملكون الشفاعة ـ لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا . وهم لايؤذن لهم فى الشفاعة للمؤمنين ، الذين يشهدون أن لا إله إلا الله : فيشهدون بالحق وهم يعلمون . لا يشفعون لمن قال هذه الكلمة تقليداً للآباء والشيوخ . كما جاء الحديث الصحيح : أن الرجل

يسأل فى قبره « ما تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن ، فيقول : هو عبد الله ورسوله . جاءنا بالبينات والهدى . وأما المرتاب ، فيقول : هاهاه ، لاأدرى . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » فلهذا قال :«إلا من شهد بالحق وهم يعلمون».

وقد تقدم قول ابن عباس : يعنى من قال « لاإله إلا الله » يعنى : خالصاً من قلبه . والأحاديث الصحيحة الواردة فى الشفاعة كلها تبين : أن الشفاعة إنما تكون فى أهل « لا إله إلا الله » .

وقد ثبت فى صحيح البخارى : أن أبا هريرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : يا أبا هريرة ، لقد ظننت أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة : من قال : « لاإله إلا الله » خالصاً من قبل نفسه » .

فبيَّن أن المخلص لها من قبل نفسه : هو أسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم من غيره ممن يقولها بلسانه ، وتكذبها أقواله وأعماله .

فهؤلاء هم الذين شهدوا بالحق ، شهدوا « أن لا إله إلا الله » كما شهد الله لنفسه بذلك وملائكته وأولوا العلم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط : لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[1] .

فإذا شهدوا ـ وهم يعلمون ـ كانوا من أهل الشفاعة ، شافعين ، ومشفوعا لهم ، فإن المؤمنين أهل التوحيد يشفع بعضهم فى بعض ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة . كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ـ فى الحديث الطويل ، حديث التجلى والشفاعة : « حتى إذا خلص المؤمنين من النار : فوالذى نفسى بيده ، مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة

---

(١) آل عمران ١٨ .

لإخوانهم الذين فى النار . يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحرم صورهم على النار — وذكر تمام الحديث » .

وسبب نزول الآية ـ على ما ذكروه ـ مؤيد لما ذكره .

قال أبو الفرج ابن الجوزى . سبب نزولها : أن النضر بن الحرث ونفراً معه قالوا : « إن كان ما يقول محمد حقاً . فنحن نتولى الملائكة ، فهم أحق بالشفاعة من محمد ؛ فنزلت هذه الآية » قاله مقاتل .

وعلى هذا : فيقصد أن الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة ، فليس توليكم إياهم ، واستشفاعكم بهم : بالذى يوجب أن يشفعوا لكم . فإن أحداً ممن يدعى من دون الله لا يملك الشفاعة . ولكن : « من شهد بالحق وهم يعلمون » فإن الله يشفع فيه .

فالذى تنال به الشفاعة . هى الشهادة بالحق ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، لا تنال بتولى غير الله ، لا الملائكة ، ولا الأنبياء ، ولا الصالحين .

[من تشفع بغير الله]

١٠٧ — فمن والى أحد من هؤلاء ودعاه ، وحج إلى قبره ، أو موضعه ، ونذر له ، وحلف به ، وقرب له القرابين ليشفع له : لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً . وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره . فإن الشفاعة إنما تكون : لأهل توحيد الله ، وإخلاص القلب والدين له . ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك .

فهذا القول والعبادة الذى يقصد به المشركون الشفاعة : يحرم عليهم الشفاعة . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ـ ليشفعوا لهم ـ كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم ، الذى به طلبوا شفاعتهم به ، حرموا شفاعتهم ، وعوقبوا بنقيض قصدهم ، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وكثير من أهل الضلال: يظن أن الشفاعة تنال بهذه الأمور التى فيها شرك أو هى شرك خالص ، كما ظن المشركون الأولون ، وكما يظنه النصارى ، ومن ضل من المنتسبين إلى الإسلام . الذين يدعون غير الله ، ويحجون إلى قبره أو مكانه ، وينذرون له ، ويحلفون به . ويظنون : أنه بهذا يصير شفيعاً لهم . قال تعالى : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه . فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً﴾[1].

قال طائفة من السلف : كان أقوام يعبدون المسيح والعزير والملائكة فبيّن الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله . كما بيّن أنهم لا يملكون الشفاعة وهذه لا استثناء فيه ، وإن كان الله يجيب دعاءهم ، ثم قال : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » فبين : أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة ، كسائر عباده المؤمنين . وقد قال تعالى : ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟﴾[2].

[ضلال الناس فى الشفاعة]

١٠٨ — وللناس فى الشفاعة أنواع من الضلال ، قد بسطت فى غير هذا الموضع .

فكثير منهم : يظن أن الشفاعة هى بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له ، كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالى وغيره . ويقولون : من أكثر صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كان أحق بالشفاعة من غيره . وكذلك من كان أحسن ظناً بشخص وأكثر تعظيماً له : كان أحق بشفاعته .

---

(١) الإسراء ٥٦ ، ٥٧ (٢) آل عمران ٨٠ .

وهذا غلط ، بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا : نتولى الملائكة ليشفعوا لنا . يظنون أن من أحب أحداً من الملائكة والأنبياء والصالحين . وتولاه — كان ذلك سبباً لشفاعته له . وليس الأمر كذلك .

بل الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له . فكل من كان أعظم إخلاصاً كان أحق بالشفاعة ، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة ، فإن الشفاعة من الله مبدؤها ، وعلى الله تمامها . فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، وهو الذي يأذن للشافع . وهو الذي يقبل شفاعته فى المشفوع له .

[الشفاعة سبب من سباب الرحمة]

١٠٩ — إنما الشفاعة سبب من الأسباب التى بها يرحم الله من يرحم من عباده ، وأحق الناس برحمته : هم أهل التوحيد والإخلاص له ، فكل من كان أكمل فى تحقيق إخلاص «لا إله إلا الله» علماً وعقيدة ، وعملا وبراءة ، وموالاة ومعاداة : كان أحق بالرحمة .

والمذنبون — الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، نخفت موازينهم ، فاستحقوا النار — من كان منهم من أهل « لا إله إلا الله » فإن النار تصيبه بذنوبه ، ويميته الله فى النار إماتة . فتحرقه النار إلا موضع السجود ، ثم يخرجه الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

فتبين أن مدار الأمر كله . على تحقيق كلة الإخلاص ، وهى « لا إله إلا الله » لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم ، كما ظنه الجاهلون .

وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين «الحمد» الذى هو رأس الشكر وبين « التوحيد والاستغفار » إذا رفع رأسه من الركوع فيقول : « ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شىء بعد أهل الثناء والمجد . أحق ماقال العبد — كلنا لك عبد — لامانع

لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ثم يقول : « اللهم طهرنى بالثلج والبرد ، والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » كما رواه مسلم فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال: اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ماقال العبد - وكلنا لك عبد - لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم أيضاً عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا رفع رأسه من الركوع — قال: سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد . اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد . اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ » .

وقد روى مسلم فى صحيحه أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم لك الحمد » وقال: « وملء الأرض وملء مابينهما » .

ولم يذكر فى بعض الروايات. لأن « السموات والأرض » قد يراد بهما: العلو والسفل مطلقا، فيدخل فى ذلك الهواء وغيره ، فإنه عال بالنسبة إلى ماتحته ، وسافل بالنسبة إلى مافوقه ، فقد يجعل من السماء ، كما يجعل السحاب سماء ، والسقف سماء ، وكذا قال فى القرآن : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[1]، ولم يقل « وما بينهما » كما يقول : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع ﴾[2] .

---

(١) الحديد ٤ (٢) السجدة ٤

فتارة يذكرقوله « وما بينهما » فيما خلقه فى ستة أيام ، وتارة لايذكره . وهو مراد ، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً ، وإن لم يذكره دخل فى لفظ « السموات والأرض » لهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم تارة يقول: « ملء السموات وملء الأرض » ولايقول « ومابينهما » وتارة يقول « ومابينهما » وفيها كلها « وملء ماشئت من شيء بعد » وفى رواية أبى سعيد « أحق ماقال العبد » إلى آخره . وفى رواية ابن أبى أوفى « الدعاء بالطهارة من الذنوب» .

[الحمد : رأس الشكر والاستغفار]

١١٠ — فى هذا الحمد رأس الشكر والاستغفار . فإن ربنا غفور شكور . فالحمد : بإزاء النعمة ، والاستغفار : بإزاء الذنوب .

وذلك تصديق قوله تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾(١) .

فى سيد الاستغفار: « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى» وفى حديث أبى سعيد « الحمد رأس الشكر ، والتوحيد » كما جمع بينهما فى أم القرآن ، فأولها: تحميد ، وأوسطها : توحيد ، وآخرها دعاء . وكما فى قوله : ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾(٢) .

وفى حديث الموطأ : « أفضل ماقلت ، أنا والنبيون من قبلى :لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . من قالها كتب الله له ألف حسنة ، وحُطَّ عنه ألف سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها ، أو زاد عليه ، ومن قال فى يوم مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حُطَّتْ خطاياه ، ولو كان مثل زبد البحر » .

---

(١) النساء ٧٩ (٢) غافر ٦٥

[فضائل وأدعية]

١١١ — وفضائل هذه الكلمات فى أحاديث كثيرة . وفيها : التوحيد والتحميد .

فقوله : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » توحيد . وقوله « له الملك وله الحمد » تحميد . وفيها معان أخرى شريفة .

وقد جاء الجمع بين التوحيد ، والتحميد ، والاستغفار ، فى مواضع : مثل حديث كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك » فيه : التسبيح ، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار . من قالها فى مجلس ، إن كان مجلس لغط ، كانت كفارة له ، وإن كان مجلس ذكر : كانت كالطابع له . وفى حديث أيضاً : « إن هذا يقال عقب الوضوء » .

فنى الحديث الصحيح فى مسلم وغيره من حديث عقبة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » وفى حديث آخر أنه يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وقد روى عن طائفة من السلف ، فى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، نحو هذه الكلمات .

روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنك خير الغافرين » « اللهم لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى ، فأنت

خير الراحمين » « لا إله إلا أنت . سبحانك وبحمدك . رب إنى ظلمت . نفسى فتب علىّ ، إنك أنت التواب الرحيم » .

فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء . وخاتمة الوضوء : فيها التسبيح، والتحميد ، والتوحيد ، والاستغفار .

فالتسبيح ، والتحميد ، والتوحيد لله ، فإنه لا يأتى بالحسنات إلا هو . والاستغفار : من ذنوب النفس ، التى منها تأتى السيئات .

وقد قرن الله فى كتابه بين التوحيد . والاستغفار فى غير موضع . كقوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾(١) وفى قوله ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبو ا إليه ﴾(٢) وفى قوله : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد . فاستقيموا إليه ، واستغفروه ﴾(٣) .

وفى حديث رواه ابن أبى عاصم وغيره : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بالاستغفار ، وبلا إله إلا الله . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

[مقتضى : لا إله إلا الله]

١١٢ — و « لا إله إلا الله » تقتضى الإخلاص والتوكل. والإخلاص: الشكر ، فهى أفضل الكلام . وهى أعلى شعب الإيمان . كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة . أعلاها : قول لا إله إلا الله . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

---

(١) محمد ١٩ . (٢) هود ٢ ، ٣ . (٣) فصلت ٦ .

فـ « لا إله إلا الله » هى قطب رحى الإيمان ، وإليها يرجع الأمر كله .
والكتب المنزلة : مجموعة فى قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهى معنى : « لا إله إلا الله » و « لا حول ولا قوة إلا بالله » وهى من معنى : « لا إله إلا الله » و « الحمد لله » فى معناها ، و « سبحان الله ، والله أكبر » من معناها ، لكن فيها تفصيل بعد إجمال .

فصـــل

[معنى قوله : « فمن نفسك »]

١١٣ — وقد ظن المتأخرين : أن معنى قوله « فمن نفسك » أى أفمن نفسك ؟ وأنه استفهام على سبيل الإنكار ، ومعنى كلامه : إن الحسنات والسيئات ، كلها من الله ، لا من نفسك .

وهذا القول يباين معنى الآية ، فإن الآية بينت أن السيئات من نفس الإنسان . أى بذنوبه ، وهؤلاء يقولون : ليست السيئات من نفسه .

وممن ذكر ذلك : أبو بكر بن فورك . فإنه قال : معناه : أفمن نفسك ؟ يدل عليه قول الشاعر :

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهراً عدد الرمل والحصى والتراب

قلت : وإضمار الاستفهام ـ إذا دل عليه الكلام ـ لا يقتضى جواز إضماره فى الخبر المخصوص من غير دلالة ، فإن هذا يناقض المقصود . ويستلزم أن كل من أراد أن ينفى ما أخبر الله به يقدر أن ينفيه ، بأن يقدر فى خبره استفهاماً . ويجعله استفهام إنكار .

وهذا من جهة العربية نظير ما زعمه بعضهم فى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ هذا ربى ﴾[1] أهذا ربى ؟

(١) الأنعام ٧٦ .

قال ابن الإنبارى : هذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذا كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار .

وهؤلاء استشهدوا بقوله : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ؟ ﴾[١] .

وهذا لا حجة فيه ، لأنه قد تقدم الاستفهام فى أول الجملة ، فى الجملة الشرطية ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾[١] فلم يحتج إلى ذكره ثانية . بل ذكره يفسد الكلام . ومثله قوله : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴾[٢] وقوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ﴾[٣] وقوله : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟ ﴾[٤] وهذا من فصيح الكلام وبليغه واستشهدوا بقوله :

لعمرك لا أدرى ، وإن كنت دارياً ... بسبع رمين الجمر ، أم بثمان ؟

وقوله :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا ؟

تقديره : أكذبتك عينك ؟

وهذا لا حجة فيه . لأن قوله فيما بعد « أم بثمان » و « أم رأيت » يدل على الألف المحذوفة فى البيت الأول . وأما الثانى : فإن كانت « أم » هى المتصلة فكذلك . وإن كانت المنفصلة فالخبر على بابه .

وهؤلاء مقصودهم : أن النفس لا تأثير لها فى وجود السيئات وليست سبباً فيها . بل قد يقولون : إن المعاصى علامة محضة على العقوبة ، لاقترانها بها . لا أنها سبب لها . وهذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وللعقل .

---

(١) الأنبياء ٣٤ (٢) آل عمران ١٤٤ (٣) البقرة ٨٧ .
(٤) البقرة ١٠٠ .

[الله لا يهلك أحداً ولا يعذبه إلا بذنب]

١١٤ — والقرآن يبين فى غير موضع : أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب ، فقال هناك : ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وقال لهم فى شأن أحد ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم : أنَّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾(٢) وقال تعالى فى سورة الشورى أيضاً : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر . لعلهم يرجعون ﴾(٨) وقال تعالى : ﴿أو يوبقهن بما كسبوا . ويعفو عن كثير ﴾(٩) وقال تعالى فى سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾(١٠) وقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾(١١) وقال تعالى عن أهل سبأ ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم — إلى قوله — ذلك

---

(١) آل عمران ١٦٥ — (٢) الشورى ٣٠ — (٣) الشورى ٤٨ .
(٤) يونس ٥٠ — (٥) الشعراء ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٦) القصص ٥٩ — (٧) الروم ٤١ — (٨) السجدة ٢١ .
(٩) الشورى ٣٤ — (١٠) القلم ٣٣ — (١١) آل عمران ١١٧

جزيناهم بما كفروا . وهل نجازى إلا الكفور ؟ ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٣] .

وفى الحديث الصحيح الإلهى : « يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً : فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك: فلا يلومنّ إلا نفسه » .

وفى سيد الاستغفار : « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى » وقال تعالى ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٤] .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه وسلم . ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، وعن التابعين وتابعى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

---

(١) سبأ ١٦ ، ١٧ (٢) هود ١٠٢ .
(٣) الإسراء ١٥ (٤) الطور ٤٧

الفهرس